دراسات حول المدينة المنورة

(١١)



تأليف

الشيخ نور الدين علي بن محمد الزرندي المدني الحنفي

تحقيق وتقديم

الدكتور محمد العيد الخطراوي

مكتبة دار التراث

المدينة المنورة - ص.ب ١٦٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم


المرور بين العلمين

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

المؤلف

نسبه:

هو أبو الحسن نور الدين علي بن أبي المظفر عز الدين يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن عكرمة بن أنس بن مالك ـ خادم رسول الله ﷺ[1] ـ فهو على هذا أنصاري، يرجع نسبه إلى بني النجار من الخزرج.

أما الزَّرنْدي التي اعتادت المراجع أن تنعته بها وتنعت بها أفراد أسرته، فهي ليست نسبة إلى الجد، بل إلى البلد (زَرَنْد)، وهي من المدن الكبيرة في إقليم كرمان ببلاد فارس كما يقول ياقوت الحموي[2].

ويقول الفيروزأبادي في قاموسه في مادة (زرِد): وزَرَنـد كمَرَنْد[3]: بلد معروف بكرمان.

---

(١) تحفة المحبين والأصحاب، في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ص ٢٧ ـ عبد الرحمن عبد الكريم الأنصاري ـ تحقيق محمد العروسي المطوي ـ المكتبة العتيقة بتونس ط ١ سنة ١٩٧٠ م.

(٢) معجم البلدان ٣: ١٣٨ دار صادر ـ لبنان.

(٣) مَرَند: قال في القاموس في مادة (مرد): مرند بلد بأذْرَبيجان.

وهي أيضاً اسم لقرية بأصبهان، قالوا: ومنها أبو عبدالله محمد بن العباس النحوي[1]، الزرندي، الشيرازي[2].

وقال في القاموس أيضاً: إنها موضع قرب المدينة، بينما قال في «المغانم المطابة ص ١٧١»: زرنْد كمَرنْد: قرية من أعمال المدينة على نحو أربعين ميلاً من جهة الشام، أخبرني (بها شيخنا)[3] أبو عبدالله محمد بن يوسف الزرندي، محدِّث حرم رسول الله ﷺ، قدم علينا بمدينة شيراز سنة ٧٤٤ هـ، لم أسمعه[4] من غيره، ولم أجده في كتاب، وهو ثقة[5].

ورغم توثيق الفيروزأبادي له فإنني أرجح أنه لا وجود لزرند قرب المدينة، وذلك لعدم ورودها في معالمها عند غير صاحب القاموس، وللإصرار الظاهر من صاحب (تحفة المحبين) وجدّه محمد هذا على أن تكون الأسرة من داخل الجزيرة العربية، ومن المدينة بالذات، وهذا الحرص ـ في اعتقادي ـ هو الذي أدى بالجد إلى اختراع هذه المعلومة، وأدى بالحفيد إلى تحريف النصوص التاريخية في كتابه، فقد أغفل في نقله عن المجد الفيروزأبادي من القاموس والمغانم: أنها مدينة بكرمان أو قرية بأصبهان. وحينما يقول المجد:

---

(١) معجم البلدان، والقاموس، والمغانم المطابة بتحقيق الجاسر ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن خالد بن يزيد، سمع أبا الحسن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن طلحة العَبْقسي، وأبا الحسين أحمد بن عبدالله الخركوشي، وغيرهما. روى عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد النَّخْشبي وغيره (انظر معجم البلدان ـ مادة زرند).

(٣) هذه الزيادة من تحفة المحبين ص ٧.

(٤) في الأصل: (لم أسمع).

(٥) ستأتي ترجمته بعد قليل.

موضع قرب المدينة، يحرِّفها هو إلى: اسم موضع بالمدينة.

ويقول محقق التحفة في الحاشية معلقاً على كلام المجد: عقب عليه الزبيدي بقوله: بل محلة من محلاتها، (الضمير عائد إلى المدينة) نسبة إلى الزرندي الأنصاري المشهور، لا أنه موضع من مواضع العرب القديمة.

والحقيقة أن كلام الزبيدي صحيح، فكلنا يعرف أن زقاق الزرندي أحد أزقة المدينة الواقعة جنوب غرب باب السلام مما يتصل بسويقة، أو ما يُعرف تاريخياً بسوق الحذْرة، في أوله، على يسار المتجه من باب السلام إلى المناخة، وقد زال في السنوات الأولى من هذا القرن ضمن التوسعة السعودية لشوارع المدينة وساحاتها، وهو مسمى دون شك باسم أحد أعلام هذه الأسرة التي كان لها في المدينة وجاهة ومكانة مرموقة، حيث توارث أبناؤها القضاء الحنفي والحسبة فيها عشرات من السنين المتوالية، وملكوا الدور والبساتين والضياع.

ولست أدري ماذا يضير أنصارية الأسرة أن يكون جدها استقر في زرند الفارسية، ثم عاد الأحفاد إلى المدينة بلد آبائهم وأجدادهم في وقت مبكر، قد يكون أواخر القرن السابع الهجري، ومما يرجح هذا تردد بعض العناصر الأولى لهذه الأسرة على تلك الديار، وتولِّي بعضهم قضاءها، وكذلك نسبة جد والد المؤلف ـ وهو محمد بن محمود ـ إلى قزوين[1].

أعلام أسرته:

لأسرة الزرندي تاريخ طويل مع العلم والوظائف الشرعية

---

(١) شذرات الذهب ٤: ٣.

بالمدينة، بحيث ظلَّت الحسبة بالمدينة وقضاء الأحناف في أفرادها قرابة قرنين من الزمن تبدأ من سنة ٧٦٦ حين تولاها صاحب هذه المقامة، وقد أحصيت من أعلامهم وعلمائهم ما ينوف على ٦٦ علماً، من أبرزهم:

١ ـ محمد بن محمود بن الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن عكرمة بن أنس بن مالك الأنصاري، الخزرجي، النجَّاري، كان معروفاً بالفقه والصلاح، عرف بنسبته إلى قزوين، وكان يكنى بأبي الفرج، ورث العلم عن والده العلاَّمة أبي حاتم محمود بن الحسن، وكلاهما كان شافعي المذهب. وممن أخذ عنه استملاءً السِّلفي. وتوفي في شهر محرَّم سنة ٥٠١ هـ وهو جد والد المؤلف[١].

٢ ـ يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن الحسن، أبو المظفر، عز الدين. ولد سنة ٦٤٠ هـ، وسمع في بغداد من عبد الصمد بن أبي الجيش، وأبي وضاح، ثم رحل إلى الشام ومصر وغيرهما، وطلب وحصَّل، وجمع وخرَّج. وكان عدلاً فاضلاً، كثير العبادة، حج أربعين حجة، ومات وهو قاصد إلى الحجاز مع الركب العراقي في سنة ٧١٢، قال ابن حجر: (وله ذرية بالمدينة الشريفة)، وهو والد المؤلف، وله من الأولاد أيضاً: أحمد، ومحمد[٢].

٣ ـ أحمد بن يوسف بن الحسن بن محمد، أبو العباس، الشهاب، وقيل: الشمس. سمع ببغداد من علي بن تامر بن حصين الفخري، وقدم القاهرة، فسمع بها مع السخاوي على يحيى بن فضل

(١) المرجع السابق، وطبقات الشافعية الكبرى ٦: ٣٩٤.

(٢) الدرر الكامنة ٤: ٤٥٢.

الله، وغيره. كما سمع بالمدينة على الجمال الكازروني، وكافور الخضري في سنة ٧١٣ في (تاريخ المدينة) لابن النجار، وسمع مع أخيه محمد بقراءة أبيهما على البرهان إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري الشافعي. وكان صوفيّاً، ذا عقل ورئاسة وتدين ظاهر، مع حسن سياسة للإخوان والأحباب. ولد سنة ٧٠١ وأنجب من الأولاد عبدالله ومحمداً، وسافر مع أولهما إلى الشام فماتا بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ وهو أخو المؤلف[١].

٤ ـ محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد، أبو عبدالله، شمس الدين، ولد سنة ٦٩٣ وصنف كتباً عديدة منها: (درر السمطين في مناقب السبطين)، و (بغية المرتاح) جمع فيه أربعين حديثاً بأسانيدها، وشرحها. وتولى تدريس الفقه والحديث، وتصدَّر وترأس بعد أبيه بالمدينة، ثم رحل إلى شيراز، فولي القضاء بها حتى مات سنة ٧٤٨، وقيل سنة بضع وخمسين وسبعمائة، وكان حنفي المذهب[٢].

٥ ـ محمد بن أحمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود، أبو الخير، الشمس، ارتحل في طلب العلم إلى الشام والعراق، ولقي بأربيل سنة ٧٦٣ الجمال يوسف بن إبراهيم الهملابازي الأربيلي، شيخ القراء بأذربيجان، فأجاز له في القراءات، وجعله ناظراً على كتابه (الأنوار لأعمال الأبرار) في الفقه. وسمع أيضاً على البدر الخشاب (الجواهر واللآلىء) من حديث جده المجد عيسى بن عمر

---

(١) التحفة اللطيفة للسخاوي ١: ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) الدرر الكامنة ٤: ٢٩٥.

الخشاب في سنة ٧٧٠ هـ، وقرأ عليه الجمال الكازروني (عوارف العوارف)، كما قرأ عليه أبو الفضائل محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم (صحيح البخاري). وكان من فقهاء الشافعية المعدودين، ومن البارعين في علم الفرائض، ووصفه كاتب (الطبقة) العز بن عبد السلام بن الشمس محمد الكازروني: بالفقيه، العالم، العامل الصالح، المحدِّث المحصل. تولى التدريس في المدينة قبل سفره منها مع عمه محمد بن يوسف إلى شيراز، ولما مات عمه تحوَّل منها إلى كازرون، وغلب عليه التصوف، ومات سنة ٧٨٣[١].

٦ ـ عبدالله بن أحمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود، أبو اليمن، الجلال، حفظ القرآن، ثم حفظ: العمدة، والشاطبية، والتقريب في علوم الحديث للنووي، والتنبيه، والحاوي، وبانت سعاد وتخميسها، وعقيدة الشيخ أبي إسحاق، والدرة المضيئة، والرسالة القدسية للغزالي، والمنهاج الأصلي، والفصيح في اللغة، والمقصورة لابن دريد، والمقامات للحريري، والحاجبية في النحو، وتلخيص المفتاح، وغيرها، وعرضها في سنة ٧٣٨ على عبد المؤمن بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي بن العجمي، وكتب له الإجازة بخط حسن. وأخذ التصوف عن والده، وعن هذا الشيخ. وكان شافعي المذهب. سافر مع والده إلى دمشق، فرأس، وبرع، واشتهر، وولي الوظائف الجليلة، ثم ماتا جميعاً فيها بالطاعون سنة ٧٤٧ هـ[٢].

٧ ـ عبد الرحمن بن علي بن يوسف بن الحسن بن محمد، أبو الفرج، الزين. ولد في ذي القعدة سنة ٧٤٦ بالمدينة النبوية، وهو

---

(١) الدرر الكامنة ٣: ٣٧٢ والتحفة اللطيفة ٣: ٥١٣.

(٢) الدرر الكامنة ٢: ٢٤٧ والتحفة اللطيفة ٢: ٢٩٢.

خاتمة من روى عن الزين الأسواني. كما سمع من العز بن جماعة (الفرج بعد الشدة) لابن أبي الدنيا، وسمع جزءاً من حديثه سنة ٧٦٧ على قف بئر أرّيس بالمدينة. وسمع أيضاً من الصلاح العلائي: الجزء الأول من مسلسلاته، ومن الجلال عبد المنعم بن أحمد الأنصاري أجزاءاً من (السفينة الخرائدية الكبرى)، ومن الزين العراقي، والبدر عبدالله بن محمد بن فرحون، والعفيف اليافعي، سمع عليهما البخاري بقراءة أبيه، وقرأ هو بنفسه على الجمال أبي إسحاق الأميوطي، وأجاز له في سنة ٧٧٤ فما بعدها: ابن أميلة، وابن الهبل، والصلاح ابن أبي عمر، وإبراهيم بن أحمد بن فلاح، والأذرعي، والعماد ابن كثير، ومحمد بن محمد بن يوسف البكري، ويوسف بن محمد الأنصاري الدلاصي، والكمال ابن حبيب وأخوه الحسين، ومحمد بن سالم بن إبراهيم المقدسي، وابن قواليح، ومحمد بن عمر بن قاضي شهبة، وخلق. واشتغل بالفقه وغيره من العلوم الشرعية. وأخذ عنه ابن أخيه القاضي نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف، كما قرأ عليه (البخاري) إبراهيم بن الجلال الخُجندي. ووصف في (الطبقة) بالقاضي الأجل العالم.

وولي قضاء الحنفية بالمدينة النبوية بعد أخيه أبي الفتح، في سنة ٧٨٣، واستمر على ذلك نحواً من ٣٣ سنة حتى مات، إلَّا أنه عُزل مرة سنة ٨٠٤ ثم أعيد، وكذلك ولي فيها الحسبة. وكان عاقلاً، متودِّداً غزير المروءة، فاضلاً. ومات سنة ٨١٧ هـ، وهو الذي جدَّد البئر التي اشتهرت بين المدنيين بزمزم، على يمين الطريق السالك للعقيق[1].

(١) الضوء اللامع ٤: ١٠٥ والتحفة اللطيفة ٢: ٥١٨ ـ ٥٢٠ وشذرات الذهب ٧: ١٢٥.

٨ ـ عبد الوهاب بن علي بن يوسف بن الحسن بن محمد، أبو نصر، التاج. سمع في سنة ٧٧٩ على الزين أبي بكر الحسين المراغي مؤلفه (تاريخ المدينة)، وقرأ على الجمال الأميوطي (الترمذي) في مجالس، آخرها في ١٤ ذي القعدة ٧٨٥ بالمدينة، وسمعه بقراءته على الجمال الكازروني[١].

٩ ـ محمد بن علي بن يوسف بن الحسن بن محمد، أبو الفتح، فتح الدين، تولى القضاء بالمدينة[٢]، ولا يستبعد أن يكون مشائخه هم مشائخ أخيه عبد الوهاب، أو بعضهم على الأقل، وبخاصة الكازروني، والمراغي، فإن كثيرين من بيت الزرندي أخذوا عنهما وجلسوا لديهما للدرس.

١٠ ـ عبد اللطيف بن الشمس محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد، أبو أحمد، السراج، ولد بالمدينة، وسمع بها من الجمال المطري (ثلاثيات البخاري) و(تاريخ المدينة) له، وحدث بهما، وسمعهما عليه المحب المطري، وحدَّث عنه.

وسمع على الزين العراقي سنة ٧٨٩ تصنيفه في (قص الشارب)، ومعه ابنه الكمال أبو الفضل محمد، مات سنة ٨١٧ هـ، وكان شافعياً على خلاف مذهب أبيه. وترك أربعة أولاد هم: أحمد، ومحمد، وأبو الطاهر، وأبو الفضل[٣].

١١ ـ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف بن الحسن،

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ١٠٨.

(٢) الضوء اللامع ١١: ١٢٦ والتحفة اللطيفة ٣: ٦٨٥.

(٣) التحفة اللطيفة ٣: ٧٢ ـ ٧٣ والدرر الكامنة ٢: ٤١٠.

الشمس، وكان فقيهاً على المذهب الحنفي[1]. سمع على الجمال الكازروني سنة ٨٣٤.

١٢ ـ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف بن الحسن، الكمال، أبو الفضل، وكان رجلاً فاضلاً متفقهاً على المذهب الشافعي[2].

١٣ ـ محمد بن التاج عبد الوهاب بن علي بن يوسف بن الحسن، أبو الفتح، فتح الدين، ولد بعد سنة ٧٨٠ بالمدينة الشريفة، وحضر في سنة ٧٨٥ على سليمان السقا نسخة أبي مسهر. ثم سمع على الأميوطي، والبرهان ابن فرحون، وأجاز له البلقيني، وابن الملقن، والعراقي، والهيثمي، والدميري، والحلاوي، والسويداوي، وغيرهم. ذكره التقي ابن فهد في معجمه، وولي قضاء المدينة وحسبتها بعد النجم يوسف بن أبي الفتح محمد بن يوسف بن الحسن (أي بعد ابن عمه)، بعد أن كان هو القائم بأعباء المنصب عنه. وكان حنفي المذهب، وهو والد أحمد وسعيد وسعد وعبدالله ومحمد. مات بالمدينة في رابع عشر ذي القعدة سنة ٨٣٨، ودفن بالبقيع، واستقر بعده في المنصب ابنه سعد[3].

١٤ ـ أحمد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف بن الحسن، الشهاب، كان حنفياً، وهو أحد الأخوة الخمسة، ناب عن أبيه في القضاء، ومات في الثالث عشر من رمضان سنة ٨٦٤[4].

---

(١) المرجع السابق ٣: ٦٥٤ والضوء ٨: ٧٨.

(٢) الضوء اللامع ١١: ١٢٩.

(٣) الضوء اللامع ٨: ١٣٥، ١١: ١٢٤.

(٤) الضوء ٢: ١٤٠ والتحفة اللطيفة ١: ٢٨٥.

١٥ ـ سعد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف بن الحسن، سعد الدين، وُلد بالمدينة، وسمع على أبي الفتح المراغي، وفي سنة ٨٣٧ سمع على الجمال الكازروني في (البخاري)، وولي قضاء الحنفية بالمدينة مع حسبتها، بوساطة من الأمين الأقصرائي، وكان إذ ذاك ببلاد العجم، فأنيب أخوه سعيد عنه إلى حين رجوعه، وسافر إلى القاهرة غير مرة وهو قاض، في أيام الظاهر جمقمق، وشكا إليه دَيْنه وأنه ألف دينار، فأنعم عليه بها بعد مساءلته الشديدة عن سبب دينه، ومات عن بضع وستين، في ربيع الثاني سنة ٨٦٨ بالمدينة[١].

١٦ ـ سعيد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف، جمال الدين، حفظ (الهداية)، وسمع سنة ٨٣٧ على الجمال الكازروني في (البخاري) مع أخيه سعد، وقرأه على طاهر بن الحسين فيها أيضاً، كما سمع على أبي الفتح المراغي، وغيره، وكان حنفياً، بارعاً في استحضار المذاهب الأخرى، وجلس للتدريس، وكان جيد الإلقاء، ناب عن أخيه سعد في ولاية القضاء والحسبة بعد وفاة أبيه أبي الفتح محمد، لغيبة أخيه في بلاد العجم، ثم وليهما بالأصالة بعد موت أخيه هذا، ومات عن بضع وستين في جمادى الأولى سنة ٨٧٤ بمكة، بعد أن أصيب بخلط، ودفن بالمعلاة، بجوار أبي الفتح المراغي، بالقرب من الفضيل بن عياض، وهو والد علي وأبي الفتح محمد[٢].

---

(١) الضوء ٣: ٢٥٣ والتحفة اللطيفة ٢: ١٣٧.

(٢) الضوء ٣: ٢٥٦ والتحفة اللطيفة ١: ١٥٦.

١٧ ـ عبدالله بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف، الجمال، نشأ بالمدينة، منشغلاً بما يهمه من أمر المعيشة، منصرفاً عن الولاية والرئاسة، ولم يفارق المدينة إلاَّ إلى مكة. مات سنة ٨٦٢ عن بضع وأربعين سنة[١].

١٨ ـ الحسن بن أبي الفتح محمد بن علي بن يوسف بن الحسن، أخو علي ويوسف وأبي الطيب. سمع على الجمال الأميوطي، والزين المراغي، والعلَم السقا[٢].

١٩ ـ يوسف بن أبي الفتح محمد بن علي بن يوسف بن الحسن. ولد في حدود سنة ٧٨٠ بالمدينة، وسمع من الجمال الأميوطي، والزين العراقي، والعلَم سليمان السقا، وأجاز له أبو هريرة الذهبي، والتنوخي، وابن أبي المجد، وآخرون، وذكره التقي ابن فهد في معجمه. مات في صفر سنة ٨٣٩ بالمدينة، وكان حنفياً[٣].

٢٠ ـ علي بن أبي الفتح محمد بن علي بن يوسف بن الحسن، أبو الحسن، نور الدين، ولد تقريباً سنة ٧٧٥ هـ، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر عمه القاضي الزين عبد الرحمن، وسمع عليه، واشتغل بالعلم على الجلال الخجندي، ولازمه كثيراً، وسمع عليه في سنة ٧٩٧ جزءاً من حديث العلائي بقراءة أبي بطيح المراغي، ووصفه بالفقيه البارع، وكذا قرأ عليه (البخاري)، وقرأ النحو على المحب بن هشام، وغيره. وسمع على الزين المراغي، وهو وأخواه

---

(١) الضوء ٥: ٥٧ والتحفة اللطيفة ٢: ٣٩٨.
(٢) التحفة اللطيفة ١: ٤٩٨ ومكان تاريخ وفاته بياض.
(٣) الضوء ١٠: ٣٣٢.

حسن ويوسف على العلَم سليمان السقا (الشفا) في سنة ٧٨٥، وقرأ على ابن الجزري مشيخة الفخر.

وكان إماماً، عالماً، بارعاً، ديّناً، شهماً، بشوشاً، جميل الهيئة، ماهراً في العربية والتفسير. ولي قضاء الحنفية بالمدينة بعد موت عمه عبد الرحمن في سنة ٨١٧، واستمر فيه حتى مات في ليلة السبت ثالث عشر ربيع الثاني سنة ٨٢٣ بعلة ذات الجنب، عن خمسين سنة أو نحوها، ودفن بالبقيع.

وممن أخذ عنه أخواه، وكذا لازمه أبو الفرج ابن المراغي في تفسير القرآن وإعرابه، وفي قطعة من مباحث الألفية، والحاجبية، بل قرأ عليه بحثاً قطعة كبيرة من (الجمل) للزجاجي، وأجاز له.

وعرض عليه الشمس محمد بن عبد العزيز الكازروني، بل أخذ عنه النحو والصرف، والمعاني والبيان، وإعراب القرآن، بقراءته وقراءة غيره، وأخذ عنه العربية أيضاً القاضي فتح الدين أبو الفتح ابن صالح، وأيوب بن سليمان المغراوي، وآخرون. وأجاز للتقي ابن فهد وأبيه، قال الفاسي في (ذيل النبلاء): وقد سمع معنا على بعض شيوخنا، وكان محموداً عند الناس[1].

٢٥ ـ عبد الوهاب بن المحب محمد بن علي بن يوسف بن الحسن، التاج، كان شافعياً كأبيه، وانتقل ابناه عبد السلام وعبد الواحد إلى المذهب الحنفي. سمع هو وأخواه: عمر ومحمد على الزين أبي بكر المراغي في سنة ٨٠٢، كما سمع (البخاري) سنة ٨٣٧

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

على الجمال الكازروني، وكان معروفاً بالفقه والفضل[1].

٢٦ ـ عمر بن المحب محمد بن علي بن يوسف بن الحسن، السراج، أخو عبد الوهاب ومحمد، سمع على الزين المراغي، وأحضر في الرابعة على الجمال الأميوطي[2].

٢٧ ـ محمد بن المحب محمد بن علي بن يوسف بن الحسن، أبو البقاء، البهاء، وكان شافعياً، قال ابن حجر في (إنبائه): ولي قضاء المدينة وإمامتها وخطابتها في سنة ٨٠٩ ثم عُزل، بعد زيادة على نصف سنة، فسافر من المدينة إلى دمشق، ثم بلاد الروم، وانقطعت فيها أخباره مدة من الزمن، ثم قدم إلى القاهرة ومات فيها بالطاعون سنة ٨٢٢. وكان قد سمع على الجمال الأميوطي، والزين المراغي، والعلم سليمان السقا، وتفقه على يد الجمال الكازروني وتزوج ابنته، وقرأ عليه قريبه يوسف بن أبي الفتح محمد بن علي الزرندي في (البخاري) بالروضة الشريفة[3].

٢٨ ـ محمد بن سعيد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف، أبو الفتح، فتح الدين، أخو علي بن سعيد، قرأ على أبيه (الشفا) سنة ٨٧٢ و (البخاري) في التي بعدها، وقرأه مرة أخرى على أخيه علي في سنة ٨٧٥، وهو من المشهورين بكنيتهم، ولد بالمدينة ونشأ فيها، فحفظ القرآن والشاطبية، والقدوري والمنار، وألفية النحو، وعرض على الأبشيطي وأبي الفرج المراغي، وغيرهما كالأمين

---

(١) الضوء ٥: ١٠٨ والتحفة اللطيفة ٣: ١١٠.

(٢) الضوء ٦: ١٢٣.

(٣) الضوء ٩: ١٦٦ ـ ١٦٧.

الأقصرائي حين دخل القاهرة صحبة والده سنة ٨٧١، بل أخذ عنه شرح المجمع لابن فِرِشْتا تقسيماً، وكان أحد القراء فيه، وكذلك قرأ عليه صحيح مسلم والشمائل وغيرهما، وتكرر دخوله إلى القاهرة، بحيث أخذ عن الصلاح الطرابلسي، وقرأ على البرهان الكركي (الشفا) وحضر دروسه، وحضر في العربية على الأبشيطي، وأخذ عن الشيخ حميد الدين النعماني في أيام الموسم، وسمع من السخاوي بالمدينة، وباشر القضاء والحسبة عن أبيه ثم عن أخيه، ثم وليهما أصالة بعد وفاة أخيه بمصر سنة ٩١٠ واستمر فيهما إلى أن مات، فتولى بعده القضاء ولده سعد[١].

٢٩ ـ علي بن سعيد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف، نور الدين، ولد بعد سنة ٨٤٠ بالمدينة، وحفظ أربعين النووي، والشاطبية، وألفية العراقي، والكنز، وأصول الشاشي، ومختصر التفتازاني في أصول الكلام، وألفيه ابن مالك، والتوضيح لابن هشام، والشافية في الصرف، وإيساغوجي في المنطق.

وعرض على غير واحد، منهم: الزين قاسم الحنفي، وقرأ في الفقه على حميد الدين العجمي، وفي العربية والمنطق على الشهاب الأبشيطي، وكذلك على السيد علي شيخ الباسطية، وأحمد يونس، ومحمد بن مبارك، وعلى السيد معين الدين الإيجي، وملاّ محمد سلطان في العربية، وأخذ عن الأمين الأقصرائي حين قدومه عليهم في المدينة.

وسمع على أبي الفرج المراغي، والكازروني، بقراءته وقراءة

---

(١) الضوء ٧: ٢٥٢ والتحفة اللطيفة ٣: ٥٧٥.

غيره. وتلا القرآن على الشمس الششتري، وعمر النجار، وكذلك على السيد الطباطبي، لنافع وأبي عمرو، ثم جمع السبع إلى (براءة) عليه. وكان حنفياً، وولي القضاء والحسبة بعد موت أبيه بمكة سنة ٧٧٤، وأسعفه البرهان ابن ظهيرة بكتابة محضر بتأهّله لهما. ثم عُزل عن الحسبة يسيراً بقريبه النور علي بن يوسف بن أبي الفتح محمد الزرندي، ثم أعيد إليها، إلى أن أضيفت لشيخ الخدَّام المقر الشجاعي شاهين الجمالي، ففوَّضها بعدُ لأبي الفتح محمد أخي صاحب الترجمة، مع مشاركته في بعض الأمور.

وحلَّق بالمسجد في الفقه والحديث، وقرأ عليه أخوه أبو الفتح (البخاري)، وركب البحر سنة ٨٧٣ للقاهرة، فبلغه الطاعون، فعاد، ثم كان دخوله لها في سنة ٨٩٧ مع باقي القضاة، حين المرافعة في بعضهم، فحفَّهم اللطف وأسرعوا بالرجوع، لانتشار الطاعون أيضاً، ثم سافر مرة أخرى بحراً سنة ٩٠٩، فوجد الطاعون بها، فمات فيه سنة ٩١٠ هـ[(١)].

٣٠ ـ محمد بن علي بن أبي الفتح محمد بن علي بن يوسف بن الحسن، فتح الدين، اشتغل بالفقه وغيره، بحيث تأهَّل للتدريس، وكان يؤثر العزلة، فلا يخرج غالباً إلَّا للجماعة، وأوصى أن يدفن بالقرب من قبور شهداء أحد، جوار الجلال الخُجندي، ففُعل به ذلك، ومات تقريباً سنة ٨٦٨ هـ[(٢)].

٣١ ـ علي بن يوسف بن أبي الفتح محمد بن علي بن يوسف،

---

(١) الضوء ٥: ٢٢٤ والتحفة اللطيفة ٣: ٢٢٢.
(٢) الضوء ٩: ٢٢.

النور، ولد في جمادى الثانية سنة ٨٢٩ بالمدينة، ونشأ بها، وسمع على أبي الفتح المراغي، وسافر إلى مصر غير مرة، وكان ينزل عند الأمين الأقصرائي، ويحضر دروسه، تولى حسبة المدينة بمساعدة عمر بن عبد العزيز بن بدر السابقي، كاتب الحرم، عوضاً عن قريبه قاضي الحنفية علي بن سعيد بن محمد بن عبد الوهاب، ثم عزل عنها بعد وقت يسير، وأعيد إليها علي بن سعيد، وكلاهما حنفي.

وكان ذا حديقتين، واحدة تسمى: (العليقة) بقباء، والأخرى تسمى: (البقع) بالعوالي ومات في سنة ٨٩٢ هـ[١].

٣٢ - معاذ بن عبد الوهاب بن المحب محمد بن يوسف. سمع على جدِّه لأمه الجمال الكازروني، وأبي الفتح المراغي، وكان شافعياً كأبيه وجده، ولم يقتف طريق والده في التشفع من أبنائه سواه[٢].

٣٣ - عبد السلام بن عبد الوهاب بن المحب محمد بن علي بن يوسف، ولد في جمادى الأولى سنة ٨٣٥ بالمدينة، ونشأ بها، فحفظ كتباً، كالشاطبية، والمختار، وألفية النحو، وعرض على جماعة، وسمع على الجمال الكازروني، وأبي الفتح المراغي، والمحب المطري، وكذلك سمع (البخاري) على الشمس محمد بن عبد العزيز الكازروني في سنة ٨٤٧، ثم بعدها على أبي الفرج المراغي، كما سمع على شمس الدين السخاوي وكتب بعض تصانيفه، وامتدحه ببعض أشعاره. وكان جيد الخط، وقد تكسب من نسخ الكتب ونظم

(١) الضوء ٦: ٥٣ والتحفة اللطيفة ٣: ٢٧٣.
(٢) الضوء ١٠: ١٦١.

الشعر. حصل له في أثناء سنة ٨٩٧ سقوط في الحمَّام، فصار يمشي بتكلُّف على عكَّاز.

وتردد على القاهرة، وحضر فيها دروس السعدي بن السعدي، والجلال المحلي، وغيرهما، وكذلك دخل حلب فما دونها، لطلب المعيشة. وكان حنفياً، وقطن بمكة من سنة ٨٧١، وظل بها حتى مات في آخر ليلة الأحد رابع رجب سنة ٩٠٩ ودفن بالمعلاة[١].

٣٤ ـ عبد الواحد بن عبد الوهاب بن المحب محمد بن علي بن يوسف. سمع على الجمال الكازروني، وأبي الفتح المراغي، وأخيه أبي الفرج المراغي، وغيرهم، وسافر إلى القاهرة غير مرة، وسمع بها على البُلقيني، والمناوي، والمحب ابن الشحنة، وحضر عند الزين قاسم الحنفي، والأمين الأقصرائي، وأبي عبيدالله، والعضدي السيرافي، والكمال إمام الكاملية، والشهاب ابن عبادة، دروسهم في الفقه وأصوله، والعربية. واختص بابن أبي السعود حين كان نازلاً بالمدينة. وكذا دخل الشام، وحضر عند البلاطيني، والبدر ابن قاضي شهبة، وزار بيت المقدس والخليل، وكان حنفياً، وحفظ القدوري، وألفية ابن مالك، وعرض على جماعة، وكان مولده سنة بضع وأربعين وثمانمائة[٢].

٣٥ ـ محمد بن عبد الوهاب بن المحب محمد بن علي بن يوسف، سبط الجمال الكازروني، سمع على جده لأمه[٣].

٣٦ ـ عبدالله بن السراج عمر بن المحب محمد بن علي بن

---

(١) الضوء ٤: ٢٠٦ والتحفة اللطيفة ٣: ٩ ـ ١١.

(٢) الضوء ٥: ٩٤ والتحفة اللطيفة ٣: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٣) الضوء ٨: ١٣٧ والتحفة اللطيفة ٣: ٦٥٨.

يوسف. سمع على الجمال الكازروني، وأبي الفتح المراغي[1].

٣٧ ـ محمد بن السراج عمر بن المحب محمد بن علي بن يوسف، الشمس، كان شافعياً، حفظ المنهاج وغيره، وأخذ القراءات عن ابن عياش والطباطبي، وسمع أبا الفتح المراغي، كما سمع (البخاري) على المحب الأقصرائي بالروضة النبوية سنة ٨٥١، وقرأه أيضاً على أبي الفرج المراغي والشمس السخاوي. وكان رجلاً فاضلاً خيِّراً، صاهره السيد السمهودي على أخته رقية، وباشر في حاصل الحرم مع دشيشة الظاهر جمقمق. ومات في شوال سنة ٨٨٩ وهو دون السبعين[2].

٣٨ ـ عبد الباسط بن البهاء محمد بن المحب محمد بن علي، سمع على جده لأمه الجمال الكازروني جُلَّ (البخاري) في سنة ٨٣٧[3].

٣٩ ـ عبد الرحمن بن البهاء محمد بن المحب محمد بن علي. سمع (البخاري) سنة ٨٣٧ على الجمال الكازروني، مع أخيه عبد الباسط، وقرأه أيضاً على أبي الفرج المراغي سنة ٨٤٨، وكان شافعي المذهب[4].

٤٠ ـ محمد بن البهاء محمد بن المحب محمد بن علي، أبو الفضل[5]، وشيوخه في الغالب هم شيوخ أخويه.

---

(١) الضوء ٥: ٤٠ والتحفة اللطيفة ٢: ٣٦٨.

(٢) الضوء ٨: ٢٥٩ والتحفة اللطيفة ٣: ٦٩٥.

(٣) الضوء ٤: ٣١ والتحفة اللطيفة ٢: ٤٤٩.

(٤) الضوء ٤: ١٤٥ والتحفة اللطيفة ٢: ٥٤٠.

(٥) الضوء ٩: ٢٦٠.

٤١ ـ محمد بن أحمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف. سمع على الزين المراغي، ومن ذلك سنة ٨٠٢ في تاريخه للمدينة[١].

٤٢ ـ عبدالله بن أحمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، أخو محمد، وهو ممن سمع على الزين المراغي [٢].

٤٣ ـ عبد اللطيف بن الكمال أبي الفضل محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، ولد بالمدينة في صفر سنة ٧٩٤ وكان شافعياً، حفظ المنهاج، وألفية النحو، والشاطبية، وسمع على أبي الفتح وأبي الفرج ابني المراغي، والجمال الكازروني، بل سمع على الزين المراغي سنة ٨٠٢، وتلا بالسمع على السيد الطباطبي، وسمع في سنة ٨٥١ (البخاري) على المحب الأقصرائي، وفيها مات مقتولاً بدرب الشام، وترك ولده الشمس محمد في الثانية أو الثالثة من العمر [٣].

٤٤ ـ عبد الملك بن الكمال أبي الفضل محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، وكان شافعياً، مات في أول صفر سنة ٨٦٧ [٤] هـ ولا بد أنه سمع في المدينة على من سمع عليه أخوه عبد اللطيف.

٤٥ ـ محمد بن أبي الطاهر بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، سمع في رمضان سنة ٨٠٢ على الزين المراغي في تاريخه المدينة[٥].

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ٤٧٦.

(٢) الضوء ٥: ٧ والتحفة اللطيفة ٢: ٢٩١.

(٣) الضوء ٤: ٣٣٦ والتحفة اللطيفة ٣: ٧٢.

(٤) الضوء ٥: ٨٧ والتحفة اللطيفة ٣: ٨٩.

(٥) التحفة اللطيفة ٣: ٥٨٨.

٤٦ ـ عبد العزيز بن محمد بن أبي الطاهر بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، ممن سمع في (البخاري) على الجمال الكازروني في سنة ٨٣٧[١].

٤٧ ـ محمد بن عبد اللطيف بن الكمال أبي الفضل محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، الشمس، ولد في ذي الحجَّة سنة ٨٥٠، وكان شافعياً، سمع من الشمس السخاوي بالمدينة، وقرأ عليه أماكن من الستَّة، مات سنة ٨٩١ هـ[٢].

٤٨ ـ عبد السلام بن أبي الفرج بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، سمع على الزين المراغي في سنة ٨٠٢[٣].

٤٩ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن أبي الفرج بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، الزين، قرأ على خاله الحديث بالروضة، كما سمع على الشمس السخاوي، وكان حنفي المذهب[٤].

٥٠ ـ محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، الشمس، أخو عبد الرحمن السابق، وابن أخت القاضي سمع كأخيه على خاله، وعلى الشمس السخاوي بالمدينة[٥].

٥١ ـ عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي الفرج بن عبد اللطيف بن محمد بن يوسف، وكان شافعياً، سمع على أبي الفتح

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ٣٩.

(٢) الضوء ٨: ٧٨ والتحفة اللطيفة ٣: ٦٥٣.

(٣) الضوء ٤: ٢٠٦ والتحفة اللطيفة ٣: ١١.

(٤) الضوء ٤: ٥٢ والتحفة اللطيفة ٢: ٤٦٦.

(٥) الضوء ٦: ٣١٨.

المراغي وأخيه أبي الفرج، وفيمن سمع (البخاري) على الجمال الكازروني في سنة ٨٣٧، وتزوج سارة بنت أبي الفتح الزرندي أخت سعد وسعيد قضاة المدينة، وهو والد عمر. كان ذا همة وفضل على أصحابه وأقرانه، وممن يعشق ركوب الخيل، كما كان كريماً جداً، ومما ذكر عنه في ذلك أنه أضاف المحب الأقصرائي في العوالي، فكان عدد الغنم التي ذبحت في مدة ثمانية أيام، خمسين. وإذا طلع الرُّطب فرض لكل رباط بالمدينة نخلة، ولكنه مات وهو فقير، في صفر سنة ٨٦٣ هـ[(١)].

٥٢ ـ عمر بن عبد العزيز بن عبد السلام، السراج، وكان شافعياً، ولد بعد موت أبيه بوقت يسير سنة ٨٦٣، واشتغل يسيراً في العربية عند مسعود المغربي، ودرس علوماً أخرى على غيره من العلماء بالمدينة، ولازم الشمس السخاوي بالمدينة، وحصل على نسخة من كتابه (المقاصد الحسنة) بعد أن سمعه منه وأجازه فيه، عاش إلى ما بعد سنة ٨٩٤ هـ[(٢)].

٥٣ ـ محمد بن عبدالله بن أبي الفتح بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف، شمس الدين، تولى قضاء المدينة، وترك من الأولاد شهاب الدين أحمد[(٣)].

٥٤ ـ عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن الشمس محمد بن عبدالله، وجيه الدين، ولد في حدود سنة ٩١٥، كان فقيهاً عالماً،

---

(١) الضوء ٤ : ٢١٩ والتحفة اللطيفة ٣ : ٣١.

(٢) الضوء ٦ : ٩٤.

(٣) تحفة المحبين ص ١٥.

فاضلاً عاملاً، توفي في حدود سنة ٩٩٢ بالمدينة المنورة بعد أن كف بصره وأعقب من الأولاد ثلاثة: أحمد وعبد الرحيم ومحمداً [١].

٥٥ ـ أم هانىء ابنة سعيد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف، شقيقة علي وأبي الفتح محمد، وزوجة القاضي صلاح الدين بن صالح، ماتت في ربيع الأول سنة ٨٩٨ بطيبة[٢].

٥٦ ـ محمد مكي بن عبد الكريم بن أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن القاضي محمد شمس الدين، ولد بمكة سنة ١٠٣٣ هـ ونشأ بها على طلب العلم، وتأدب حتى بلغ إلى أعلى المراتب، وكان حسن الخط والحظ، ورحل إلى بلاد الروم سنة ١٠٦٣ ورجع منها بقرار سلطاني يقضي بتوظيفه إماماً وخطيباً بالمسجد النبوي، ورحل إليها مرة أخرى صحبة صديقه الأديب الخطيب إبراهيم الخياري، وقد ذكره في رحلته المشهورة (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)، وذكر وفاته بطريق مصر بالطاعون، وأنه دفن بمقبرة قرية العقبة، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٠٨١ هـ وأعقب من الأولاد سليمان وعبدالله ومحمداً[٣].

٥٧ ـ محمد بن محمد مكي بن عبد الكريم.. إلخ، ولد سنة ١٠٧٨ وكان خطيباً أديباً، رحل إلى بلاد الروم ١١٠٦ وتوفي بالمدينة المنورة عن غير ولد، في سنة ١١١٨ هـ[٤].

---

(١) المرجع السابق ص ١٦.
(٢) الضوء ١٢ : ١٥٥.
(٣) تحفة المحبين ص ١٧.
(٤) المرجع السابق ص ١٨.

٥٨ ـ يوسف بن عبد الكريم بن أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن القاضي محمد شمس الدين، ولد بالمدينة في حدود سنة ١٠٥٢، ونشأ فيها على العلم والعمل والعبادة والصلاح، وحج نحو أربعين حجة، وتوفي بعرفة ملبياً يوم الاثنين سنة ١١١٨ ودفن بها. وقد شرح مقدمة الشيخ الدُّلْجي في مصطلح الحديث، وسمى شرحه (فتح الكريم المُنْجى، في شرح مقدمة الدُّلْجي)، وجمع مجاميع كثيرة في كل فن، بخطه الحسن، وأعقب من الأولاد أحمد وعبد الكريم وعبد الرحيم[١].

٥٩ ـ أحمد بن يوسف بن عبد الكريم بن أحمد... إلخ، ولد في حدود سنة ١٠٨٠ هـ ونشأ على طلب العلم الشريف حتى برع فيه، ودرَّس بالمسجد النبوي، وتولى الخطابة والإمامة فيه، وتوفي سنة ١١٢٦، وأعقب من الأولاد حسناً أبا المكارم، وعبدالله[٢].

٦٠ ـ عبد الرحيم بن يوسف بن عبد الكريم بن أحمد.. إلخ، ولد في حدود سنة ١٠٩٠ ونشأ في طلب العلم، وتولى إمامة المسجد النبوي، وارتحل إلى اليمن سنة ١١٢٨، ثم منه إلى الهند، وحصل له قبول عظيم عند سلطانها ووزرائه وأركان دولته، وغيرهم، وأقام بها معزّزاً مكرَّماً، إلى أن توفي بها في سنة ١١٤٤، ودفن في بندر سورت[٣] (ميناء على خليج بومباي).

٦١ ـ عبد الكريم بن يوسف بن عبد الكريم بن أحمد.. إلخ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٨ ـ ١٩ وسلك الدرر ٤ : ٢٤٨.
(٢) تحفة المحبين ص ١٩.
(٣) المرجع السابق ١٩ ـ ٢٠.

ولد تقريباً في حدود سنة ١٠٨٥ في شوال، ونشأ في طلب العلوم، ودرَّس بالروضة الشريفة، ثم ارتحل إلى مصر، وبيت المقدس والشام، والروم، وأخذ عمن بتلك البلاد من العلماء، وأعقب من الأولاد خمسة منهم يوسف وعبد الرحمن (صاحب تحفة المحبين)، وتوفي بمكة سنة ١١٦٢ ودفن بالمعلاة[١].

٦٢ - يوسف بن عبد الكريم بن يوسف بن عبد الكريم بن أحمد . . . إلخ، ولد في حدود سنة ١١٢١، ونشأ نشأة علمية، وبرع في العلم والأدب، وتولى الإمامة والخطابة، وألَّف الخطب والرسائل، وامتُحن بالأعداء والأضداد، فارتحل سنة ١١٧٢ إلى بغداد، واجتمع بمن فيها من العلماء، وأكرمه متوليها سليمان باشا غاية الإكرام[٢]. ثم ارتحل إلى الشام، فبلاد الروم، وامتدح الوزير راغب محمد باشا[٣] بقصيدة بائية في نحو سبعين بيتاً، وتقلد منصب إفتاء المدينة المنورة، ولم يستمر في ذلك، بسبب مكائد بعض الأعداء، ثم توجه إلى القاهرة، ومنها إلى الصعيد، ثم رجع إلى المدينة المنورة عن طريق ينبع البحر، وأقام بالعوالي معتزلاً الناس، وكاد له أعداؤه مرة أخرى لدى الدولة العليَّة بالكذب والزور والبهتان، ولكن باطلهم ظهر للدولة فبرَّأته مما نسب إليه، فتوجه إلى مكة وأقام بها مدة، ولكن السعايات تابعته فيها، فخرج منها خائفاً يترقب، ورجع إلى المدينة، وأقام بالعوالي أياماً، فورد من الشريف مساعد[٤] كتابٌ مضمونه السماح له بدخول المدينة، فأرسل إليه شيخ الحرم أحمد آغا ومحمد

(١) المرجع السابق ص ٢٠.

(٢) من أعيان العراق، توفي سنة ١٢١١ هـ (الأعلام ٣: ١٨٢).

(٣) تولى الصدارة العظمى سنة ١١٧٠ هـ (تاريخ الدولة العلية ص ١٥٥).

(٤) مساعد بن سعيد، تولى إمارة مكة (١١٦٥ - ١١٨٢) هـ.

صالح الطيَّار كتخداي[1] القلعة، كتاباً يتضمن الأمـان، وفيه من الأيْمان المغلظة على ذلك الكثير، فنزل إلى المدينة، فلما وصل إلى باب الصغير، أخذوه وجرُّوه إلى جهة باب القلعة، وأدخلوه في الحبس بها، ومعه ولده محمد أبو الفرج، وأحمد ولد أخته، فأقاموا مدة في الخشب والحديد والعذاب، ثم قتلوهم في ليلة واحدة، ودفنوهم في القلعة، ثم بعد خمس سنين وصل إلى المدينة المنوَّرة شاهين أحمد باشا متولياً أمورها، فأمر بإخراجهم من القلعة، ودفنوا بعد غسلهم وتكفينهم والصلاة عليهم في البقيع. وقتل الطيار بالسمِّ، ورتَّب عـلى أهل القلعة دعوى القسامة بحضـور جمع من المسلمـين، فيهم القاضي والمفتي، والحنفي والشافعي، وشيخ الحرم أحمد آغا، وكان كاتبه هو الوكيل في هذه الدعوى، ورتَّب عليهم الدية الشرعية واليمين على خمسين رجلاً منهم يختارهم الوكيل.

وكان قتل هؤلاء الشهـداء سنة ١١٧٧ وتمَّ إخـراجهم سنة ١١٨٢ هـ[2].

٦٣ ـ عبـد الـرحمن بن عبـد الكـريم بن يـوسف (مؤلف تحفـة المحبين)، ولد بالمدينة سنة ١١٢٤ ونشأ في طلب العلم من منقول ومعقول، وحفظ القرآن الكريم، وصلَّى بـه التراويـح في الروضـة الشريفة، وأمّ بها وخطب، وألف الخطب والرسائل، ودرَّس بالمسجد النبوي، وأقام بمكة نحو ١٧ عاماً، وارتحل إلى اليمن سنة ١١٧٢ والتقى بعلمائها، واجتمـع بالإمـام المهدي العبـاسي بن المنصوري الإمام المتوكل على الله، وامتدحه بقصيدة بائية في نحو سبعين بيتاً،

---

(١) كتخداي: كلمة فارسية تعني: نائب المسؤول أو وكيله.

(٢) تحفة المحبين ص ٢٣.

كما امتدح وزيره الفقيه أحمد النهمي، وجمع في ذلك رحلة سماها: (قرة العيون في الرحلة إلى اليمن الميمون)[1].

٦٤ ـ حسين بن علي العياشي بن يوسف، ولد في محرم سنة ١١٥٨، وحفظ القرآن، واشتغل بطلب العلم، وتولى الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي[2]، وكان حياً حين تأليف التحفة.

٦٥ ـ عباس بن علي العياشي بن يوسف، ولد في محرم سنة ١١٦٧، ونشأ نشأة صالحة، وحفظ القرآن، ثم اشتغل بطلب العلم، وتولى الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي مثل أخيه حسين[3] وكان أيضاً حياً حين تأليف التحفة.

٦٦ ـ عبد الرحمن بن حسين بن علي، ألّف كتاباً في تاريخ المدينة أشار إليه صاحب كتاب (الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة)[4] الشيخ جعفر بن حسين بن يحيى بن إبراهيم الحسني المدني المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ، وأخذ عنه كثيراً في كتابه. وجعفر هذا من أعلام أسرة آل هاشم، المشهورة الآن بالمدينة المنوّرة.

حياته:

ولد صاحب هذه المقامة بالمدينة المنورة في مطلع القرن الثامن الهجري، وذلك في سنة ٧١٠ ـ أو ـ ٧٠٨ على ما ذكره صاحب الدرر الكامنة[5]، وفي شهور ٧٠٣ على ما ذكره السخاوي، الذي عاد فقال: (وقيّده بعضهم بسنة ٧٠٨)[6].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ له ترجمة في سلك الدرر.
(٢) المرجع السابق ص ٣١.
(٣) المرجع السابق ص ٣١.
(٤) مصورة مخطوطة هذا الكتاب أهداها لي شيخنا حمد الجاسر أطال الله عمره ونفع به.
(٥) الدرر الكامنة ٣: ١٤٢.
(٦) التحفة اللطيفة ٣: ٢٦٨.

وتوفي أيضاً بالمدينة في سابع أو ثامن ذي الحجة سنة ٧٧٢، ومعنى هذا أنه عاش ٦٩ عاماً على أكثر تقدير.

وكانت المدينة في هذه الأثناء بيد أمرائها الأشراف الحسينيين من آل مهنّا، مع الدينونة والتبعية لسلاطين المماليك، فقد امتدت طموحات الظاهر بيبرس منذ انتزع الأمر لنفسه سنة ٦٥٨ هجرية إلى بلاد العرب وخدمة الحرمين، ليضيف بخدمتهما إلى اسمه مفخرة يذكرها له التاريخ، وبدأ يخطط لذلك ويسعى إليه، وما إن حل موسم حج عام ٦٦٧ حتى شد الرحال إلى مكة والمدينة لتأدية نسكه وزيارة مسجد الرسول ﷺ، حاملاً معه المؤن الكثيرة والأموال الطائلة والهدايا النادرة، حيث قدَّم لحكام المدينتين الكثير من التحف والهدايا والأموال، ليستميل قلوبهم إليه، ويبسط نفوذه عليهم، وأغدق على الأهالي فيهما مبالغ طائلة، ورتب لكثير من العائلات منحاً سنوية، وأعطى القبائل من أهل البادية أعطيات جزيلة تركت أثرها الطيب في حياتهم[1]، وكان له ما أراد، فدُعي له في خطب الحرمين بصفته السلطان المطاع، وسكّت النقود باسمه واسم دولته، وهكذا ظلت المدينة تابعة للمماليك إلى أن انتهى حكمهم بدخول السلطان العثماني سليم الثاني إلى مصر سنة ٩٢٣ فدخلت المدينة في حكمهم.

ومن أبرز الأمراء الذين تولوا حكم المدينة في حياة الزرندي:

١ - عز الدين أبو سند جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم[2] بن

(١) تاريخ مكة للسباعي ص ٢٥٥.

(٢) كان قاسم هذا - وكنيته أبو فليتة - أميراً على المدينة بعد سنة ٥٦٠، أيام الخليفة المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله العباسي، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي كان زائد الحب فيه وهو أول من عُرف من أمراء المدينة الأشراف من آل مهنّا، ثم ولي الحكم بالمدينة آل بيته من بعده وتناقلوه. (الدرر ٤ : ٣٦٣ والتحفة ١ : ٩٣).

مهنّا الأعرج بن حسين بن مهنّا الأكبر بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن عامر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان والده أبو عيسى شيحة قد قُتل وهو متوجه إلى العراق سنة ٦٤٦، قتله بنو لام الطائيون فخلفه على الإمارة ابنه عيسى مستقلاً في الحكم، ثم استحوذ عليها أخوه أبو الحسن منيف بن شيحة سنة ٦٤٩ مستعيناً بجماز، وذلك لما أظهره لهما عيسى من الكراهية، وما أبداه نحوهما من مضايقة.

وفي أيامه كانت النار التي ظهرت بالمدينة، فأقلع عن مظالمه وأناب إلى الله، وأعتق جميع مماليكه، وكذلك فزع منها جميع أهالي المدينة، فأقبلوا على الله بالتوبة والدعاء المخلص، فكشف الله كربهم، ورحم ضراعاتهم، ومات منيف سنة ٦٥٧[١] وحينئذٍ تولى جماز الإمارة، وقد يكون اشترك في تحمل أعبائها وتسيير شؤونها منذ بداية إمارة أخيه منيف، وذلك ينسجم مع قول المؤرخين: إنّ إمارته استمرت بضعاً وخمسين سنة، إذا عرفنا أنه تنازل عنها لابنه منصور سنة ٧٠٢.

وكان ذا مكانة وصولة لدى سلاطين المماليك، مرهوب الجانب فيما حوله من البلاد، ومع ذلك فقد استطاع ابن أخيه مالك بن منيف أن ينتزع منه الإمارة سنة ٦٦٦ ويستقل بها فترة طويلة من الزمن، وفي أثناء ذلك استنجد صاحب الترجمة بأمير مكة وبغيره من العُربان، وساروا إلى المدينة، فلم يقدروا على إخراج مالك بن منيف منها، فلما أيسوا رحل صاحب مكة وغيره من العربان، وبقي جماز في جماعته خارج الأسوار، فأرسل إليه ابن أخيه يقول له: أراك حريصاً على إمرة المدينة يا عماه، وأنت عمي وصنو أبي، وقد كنت لي معاضداً

(١) التحفة اللطيفة ١: ٩٤.

ومسانداً، ويجب علينا أن نحترمك ونرعى لك حقوقك، وقد استخرت الله تعالى، ونزلت لك عن الإمارة طوعاً لا كرهاً، فسرّ جماز بذلك، وحمد الله على حقن الدماء، وبلوغ مقصده، واستقل بها من يومئذ، واستقرت في ذريته من بعده.

وكان ذا رأي مصيب، وكرم عظيم على إخوته[1] وبنيهم، يوافيهم بالعطاء الجزيل الذي استمال قلوبهم وجعلهم يناصرونه ويركنون إليه ولا يشغبون عليه الإمارة، منذ حادثة ابن أخيه مالك بن منيف.

وفي سنة ٦٩٢ ذهب إلى مصر، فأكرمه السلطان الأشرف خليل وعظّم مكانته، ولقيه بالمزيد من التأهيل والترحيب، واستجاب إلى شفاعته في أمير ينبع الذي كان سجيناً عنده بمصر وأفرج عنه. كما قبل وساطته في أمر نجم الدين أبي نمي محمد صاحب مكة، الذي كان قد أظهر العداء للمماليك والميل للرسوليين ملوك اليمن، وتعمد الغياب ذلك العام عن ملاقاة الركب المصري الرسمي، فأغضب ذلك السلطان، وأرسل إليه يتهدده بمهاجمته وتوجيه العساكر لمحاربته، فلما رضي عنه بوساطة جماز، كتب إليه بالرضا، فأذعن وخطب للسلطان بمكة، وضرب الدنانير والدراهم باسمه، وكتب بذلك محاضر وجّهها صحبة شرف الدين ابن القسطلاني، فرضي السلطان بذلك ورد عليه إقطاعاته، أي مخصصاته التي كان يرسلها إليه، فشكر أبو نمي لجماز هذه اليد، وحمد له السلطان هذه الوساطة التي وفرت عليه عناء الحرب ومؤونة القتال، وبخاصة أنه كان يعاني من الفتن الداخلية، ويكابد مسؤولية صد التتار.

---

(١) له من الأخوة ثمانية، منهم منيف، وعيسى، ومحمد (جد الفواطم)، وأبو رديني (جد الردينية).

وقد كان أبو نمي ينظر إلى جماز نظرة تخوف قائمة على تجربة سابقة، إذ سبق له أن هاجم مكة سنة ٦٨٧ وحاصره فيها، ثم انتزعها منه وأدخلها في حكمه، غير أنه أقام فيها مدة يسيرة ثم جلا عنها وتركها له، ولعل هجومه عليها لم يكن سوى حملة تأديبية بتوجيه من السلطان.

وبنى جماز لنفسه داراً فخمة في عرصة السوق المعروفة بدار خزيمة، كما أقام قلعة عظيمة ليتحصن فيها، ويكشف منها ضواحي المدينة، وقد ظلت هذه القلعة حصناً لمن جاء بعده من الأمراء.

واستمرت ولايته على المدينة مع ما تخللها من بعض الانقطاعات القليلة أو مشاركة غيره له فيها بأمر السلطان بضعاً وخمسين سنة، إذ لم يترك الولاية إلا في سنة ٧٠٢ بعد أن عمي وطعن في السنّ، حيث نزل عنها لأكبر أولاده أبي غانم منصور، وفوّض إليه الأمر بحضور الجمهور، وأخذ منهم البيعة بالطاعة والنصرة والوفاء له، وأمر أن يخطب له بحضرته على منبر الرسول ﷺ.

ومات جماز في ربيع الأول سنة ٧٠٤ أي بعد ولادة صاحبنا الزرندي، وفي عهده مات أخوه عيسى بن شيحة سنة ٦٨٣، قال الذهبي: وكان في جماز تشيع ظاهر.

وكان لجماز من الأولاد أحد عشر ولداً هم: منصور، وسند، ومقبل، وودّي، وقاسم، وجوشن، وراجح، ومبارك، وثابت، ومسعود، وخنيس. تأمر منهم بعده ثلاثة هم: منصور، وودي، ومقبل[1].

---

(١) الدرر ١: ٥٣٨ والشذرات ٦: ١٠ والتحفة اللطيفة ١: ٤٢٣ وتاريخ مكة للسباعي ص ٢٥٩.

٢ ـ أبو غانم منصور بن جماز بن شيحة، اختاره والده للإمارة مكانه بعد أن أسنّ ـ كما قلنا ـ فاستقل بها في حياته منذ سنة ٧٠٢، وبعد موت والده سنة ٧٠٤ وفد أخوه مقبل بن جماز على السلطان الناصر محمد بمصر، وأقنعه بإشراكه مع أخيه منصور في الإمارة والإقطاعات، فأجابه إلى ذلك. فضاق منصور بهذا الإجراء، فاستخلف ابنه كبيشاً مكانه وتوجه إلى مصر علّه يستطيع إقناع السلطان بتنحية أخيه. ولكن أخاه اغتنم فرصة غيابه، فعدا على كبيش واستقل بالإمارة، ولحق كبيش ببعض قبائل البادية واستنصرهم ضد عمه، وهجم بهم على المدينة، واستطاع أن يقتله في سنة ٧٠٩، ثم أعاد السلطان منصوراً إلى الإمارة سنة ٧١٦، فاستمر بها إلى أن قتله ابن أخيه: حذيفة بن قاسم بن جماز سنة ٧٢٥، فقام إليه كبيش بن منصور وقتله في الحال[١].

وفي عهد منصور عاد القضاء إلى أهل السنة بالمدينة، حيث صدرت إرادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتقليد القضاء لسراج الدين عمر بن أحمد بن الخضر بن ظافر بن طراد بن أبي الفتوح، الأنصاري، الدمنهوري، وكان رجلاً فيه فطنة ودهاء وحسن تصرف وسياسة، فلم يشأ أن يتجاهل الأمير، بل أخذ خلعة القضاء التي وصلته من السلطان وتوجه بها إليه وقال له: لقد جاءني مرسوم السلطان بكذا، وأنا لا أقبل حتى تأذن. فقال الأمير: رضيت، وآذن لك بشرط أن لا تتعرض لحكامنا أو أحكامنا، وبذلك اقتصر قضاؤه على الحكم بين المجاورين وأهل السنة، وبقي قضاة الرافضة

---

(١) الدرر ٤ : ٣٦٣ وصبح الأعشى ٤ : ٣٠٠ بتصرف يسير مزيل للاضطراب.

من آل سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني يحكمون في جماعتهم على عادتهم، ومن رفع دعواه إليهم من أهل السنة أو كانت له علاقة بدعوى مقدمة من أتباعهم، كما أن الأعوان والشرط مختصون بهم، وأمر السجون راجع إليهم، والصكوك والوثائق إنما تصدر منهم، فإذا احتاج السراج إلى شيء من ذلك استعان بهم، وكان أحياناً قد ينيب عنه في عمله القاضي الشهاب أحمد الصنعاني اليماني.

وقد كان للسراج معهم تجربة سابقة تشهد بمهارته وفضله، وذلك في سنة ٦٨٢، حيث كان السلطان المنصور قلاوون الصالحي قد ولاه الخطابة بالمسجد النبوي، فقدم إليها من مصر، وانتزعها من أيدي الرافضة من آل سنان أيضاً، فكان أول من خطب بالمدينة لأهل السنّة، منذ استيلاء العبيديين (الفاطميين) على مصر والحجاز، وذلك مفخرة ـ بلا شك ـ لهذا الرجل، وفضل يعدّ للمماليك على سكان بلد المصطفى ﷺ. ثم خطب بعد السراج: الشمس الحلبي، ثم الشرف السنجاري، ثم أعيد السراج، وكان يقاسي من أذى الإمامية ومضايقاتهم ما لا يصبر عليه غيره، وهو صابر محتسب، بحيث كانوا يلطخون بابه بالقاذورات، بل كان سفهاؤهم يرجمونه بالحصباء وهو على المنبر يخطب، فلما كثر منهم ذلك، رأى خدّام المسجد أن يصطفوا بين يديه أمام المنبر في أثناء خطبته، وخلفهم غلمانهم وعبيدهم، يحمونه منهم، وهو يقول: اعذروا آل سنان، فقد أُخذ المنصب منهم بعد توارثهم له. ثم عمد إلى مصاهرة رئيس الإمامية وفقيهها، فانكف عنه بعض أذاهم.

وصودرت أموال السراج ذات مرة فيما صودر من أموال أهل المدينة، فرفع أمره إلى السلطان بمصر، فأمر السلطان بمصادرة ما

يقابلها ويفي بها من إقطاع حكام المدينة، ليرتدعوا ويكفوا عن التعرض له.

وكان أهل السنة قبله لا يسمح لهم بالخطابة ـ كما قلنا ـ أما الصلوات الخمس فقد سمح لأهل السنة باتخاذ إمام يصلي بهم. ثم صار السلطان يرسل في كل سنة مع الحجاج للمدينة شخصاً يقيم لهم الخطابة والإمامة، فيقيم بالمدينة إلى رجب، ثم يرسل غيره مع الرجبية إلى الموسم، وكل من يجيء لا يقدر على الإقامة إلا بكلفة ومشقة، لتسلط الإمامية عليه، وإيذائهم له[1].

٣ ـ مقبل بن جماز بن شيحة، أشركه السلطان في الإمارة مع أخيه منصور بن جماز، فلم يرتح الأخير لذلك ـ كما ذكرنا آنفاً ـ وانتهى الأمر بقتل كبيش بن منصور عمَّه (مقبلا)، كما قتل معه من أقاربه: قاسم بن قاسم بن جماز، لمناصرته (مقبلا)، ومنذ ذلك الحين استمر أشراف المدينة حزبين، وسرت بينهم العداوة والبغضاء، وكان لذلك كله أثر على أهل المدينة الشريفة وعلى مسار الأحداث فيها[2].

٤ ـ كبيش بن منصور بن جماز، وقيل كبيس، وكبيشة، خلف أباه منصور بن جماز في الإمارة مشتركاً مع عمه مقبل، ثم حدث ما

---

(١) الدرر ٣: ١٤٩ والتحفة اللطيفة ١: ٥٢ وولد السراج سنة خمس أو ست أو ٦٣٧ بصَنْدَفا بمصر، وسمع من الرشيد العطار، وتفقه على ابن عبد السلام، والنصير ابن الطباخ، وغيرهم. وأجاز له المرسي، والمنذري. وبرع في الفقه والأصول، وكان في أثناء إقامته بالمدينة يواسي الضعفاء، ويتفقد الأرامل والأيتام. ومرض في آخر حياته وضاقت أخلاقه، فتوجه إلى القاهرة للتداوي، فأدركه الموت بالسويس في المحرم سنة ٧٢٦ عن عمر تجاوز التسعين، وصلى عليه نجم الدين الأصفوني، ودفن هناك. وكان أول قاض للشافعية بالمدينة.

(٢) الدرر ٤: ٣٥٦.

حدث بينه وبين عمه، وأعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون والده منصوراً إلى الإمارة سنة ٧١٦، فاستمر كبيش ساعده الأيمن، فلما قُتل أبوه سنة ٧٢٥ استقل بالحكم، وذلك في شهر رمضان من هذه السنة، وقُتل في شهر رجب سنة ٧٢٨[١].

٥ ـ طفيل بن منصور بن جماز، تنازع السلطة مع أخيه كبيش، وانتهى الصراع بمقتل كبيش[٢]، وتوليه الإمارة، وذلك سنة ٧٢٨، وتوجه من القاهرة إلى المدينة، فوصلها في الحادي عشر من شوال، وأول عمل قام به لإرضاء السلطان هو منعه ابنة جوبان[٣] من أن تدفن أباها في مدرسته، وإلزامها بأن تدفنه بالبقيع.

وأقام طفيل حاكماً بها ثماني سنين وثلاثة عشر يوماً، أي إلى سنة ٧٣٦ حيث عسكر عمه وديّ بن جماز، وأولاد مقبل بن جماز (ماجد، ومبارك، وحسن، ومحمد، وعساف، ثم أن لعساف: عكاظ)، وشنوا الغارة على المدينة، ودخلوها بعد أن هرب منها

---

(١) الدرر ٣: ٢٦٢.

(٢) هذا ما ذكره السخاوي في التحفة (١: ٩٤) أما ابن حجر فقد جعل القتيل أخاه قاسماً (٢: ٢٤) ويعود السخاوي في (٢: ٢٦٠) ليجعل القاتل هم أولاد مقبل بن جماز، وليس طفيلاً. والله أعلم.

(٣) جوبان: هو جوبان النوين، الكبير، نائب المملكة المغولية، وكان مسلماً صحيح الإسلام، أجرى الماء إلى مكة حتى لم يكن الماء يباع بها، وأنشأ مدرسة بالمدينة مجاورة للحرم الشريف. وكان الساعي بالصلح بين بوسعيد المغولي والسلطان الناصر، وكانت ابنته متزوجة ببوسعيد فلما قُتل والدها نقلته إلى المدينة ليدفن في تربته التي بناها بمدرسته، فوصلوا به إليها، ولكن الأمير طفيل منعهم من دفنه فيها، وذلك بأمر السلطان، فدفنوه بالبقيع، وكان قتله سنة ٧٢٨. (انظر الدرر ١: ٥٤١).

طفيل، وسار على أقدامه إلى الديار المصرية، يشكو عمه إلى السلطان، ويخبره باغتصابه الحكم منه، ويطلب منه الانتصاف، وأسرع ودي بهداياه إلى السلطان، ليحصل منه على مرسوم رسمي يقرّه به على إمارته، فوصل إلى مصر في أثناء شهر رمضان، وقبل السلطان هديته، وأجزل عطيته، وأصدر له المرسوم المطلوب في ليلة العيد، وظل طفيل معززاً مكرّماً لدى السلطان، ثم أخذ حريته في التنقل. فلما مات ودي سنة ٧٤٣ هاجم طفيل المدينة واستولى على الإمارة، وأرسل أخاه حميداً إلى مصر، فأتاه بالتقليد وموافقة السلطان، وفرّ آل ودي وأنصارهم، وظلوا يناوشونه من خارج المدينة، ويشنون عليه الغارات، (يخربون الزروع، وينهبون الضروع، ويحرقون النخيل والأشجار، ويجذون ما أينع من الثمار، فلما اشتد الحال، وتواتر الصيال، خرج إليهم القاضي شرف الدين الأميوطي، وشيخ الخدام وأعيانهم، وصالحوهم على خمسة عشر ألف درهم، وعلى ثمرة أملاكهم وأملاك من يلوذ بهم)، ولكن طفيلاً عزم على الانتقام منهم، وتأديب غيرهم بهم، ورأى في هذا الصلح غبناً له، ونيلاً من سلطانه، فاستنجد بصالح بن حريبة من آل فضل، وبعمرو بن وهيبة من آل مراد، وبعياق بن متروك، وكلهم من البادية، فجاؤوه بجموعهم، وسار بهم على عسكر آل ودي وأنصارهم، وكانوا نحو خمسة وعشرين فارساً، وغدر بهم بعد الصلح وقتّلهم تقتيلاً، وبذلك استقر له الأمر، وخافه أعداؤه. ثم عُزل في سنة ٧٥٠ بابن عمه سعد بن ثابت بن جماز، بسبب أشياء غير لائقة، صدرت منه بتدبير بعض وزرائه فلم يرضخ للعزل، وخرج بأنصاره منها متربصاً، ثم هاجمها ونهب ما كان بها من أموال، ولم يسلم منه

حتى الحجاج، وفي سنة ٥١ قبض عليه، ونقل إلى القاهرة فأودع السجن إلى أن مات في شهر رمضان سنة ٧٥٢، وصفه السخاوي فقال: (كان خليقاً للمُلْك، سلطاناً مهيباً، معظماً محبباً للرعية، عالي الهمة، كامل السؤدد، جم المناقب، يوالي المجاورين، ويحسن إليهم، ويقبل شفاعتهم)[١].

وكان وزيره في أثناء إمارته الثانية: الحسن بن علي بن سنجر المسلّمي، عز الدين، وكان عاقلاً حسن السياسة، كثير الموالاة للمجاورين، اشتهر بين الناس بالوزير، ومات سنة ٧٤٨[٢].

وممن تولى القضاء في عهده شرف الدين الأميوطي المتقدم، وكان كثيراً ما ينوب عنه في ذلك زوج ابنته: الحسن بن أحمد بن محمد، بدر الدين، ابن الصدر عمر القيسي، الشافعي، ثم وليه استقلالاً بعد ذلك في ذي الحجة سنة ٧٤٨، فتشدّد على الروافض، فمقته الأمير طفيل لذلك وشرع في التضييق عليه، ولما حج سنة ٧٥٠ توجه إلى القاهرة، فمات بها، فاستقر مكانه في القضاء: ابن السبع[٣].

٦ - أُدي - وينطق بالواو بدل الهمزة أيضاً - بن جماز[٤] بن شيحة، بدر الدين، أبو مزروع، كان يعيش بعيداً عن المدينة، لعله بسبب الاضطراب الذي كان سائداً بين أفراد بيته، ثم أنف من طول الغربة، وغلبت عليه الرغبة في الإمارة، وبخاصة وهو يراها تنتقل إلى

---

(١) الدرر ٢: ٢٢٣ والتحفة ٢: ٢٥٨.

(٢) الدرر ٢: ٢٤.

(٣) الدرر ٢: ١٢.

(٤) هذا هو نسبه الصحيح (الدرر ٤: ٤٠٦) أما ما جاء في حرف الهمزة (أدي) وتبعه عليه السخاوي فيها أيضاً، فهو خطأ.

أبناء أخيه منصور: (كبيش، ثم طفيل)، فجمع قوماً وهاجم بهم المدينة في ربيع الأول سنة ٧٢٧ بعد أن حاصرها أسبوعاً وأحرق الباب، ففر أميرُها طفيل إلى مصر[٤].

وصادر ودي أموال الناس حتى قلت المؤن واشتد الغلاء، وافتقر جماعة من المياسير، ثم إن طفيلاً وجد التأييد من السلطان، فجهز عسكراً من مصر قدم به إلى المدينة، ففر ودّي، ثم حضرا إلى القاهرة وترافعا أمام السلطان الناصر لبيان الأحق منهما بالإمارة، وانتهى النزاع بسجن ودي وإعادة طفيل إلى المدينة، ومعه بعض الأمراء.

ثم أفرج السلطان عن ودّي في رمضان ٧٣١، ورتّب له راتباً يكفيه ويقوم بشؤونه، ولم يلبث أن أشركه في الإمارة مع طفيل. وفي سنة ٧٣٦ أفرده بها وعزل طفيلاً - كما أوضحنا ذلك في ترجمة طفيل - فظل أميراً مستقلاً لا يستطيع طفيل مناوأته، حتى مات سنة ٧٤٣، وحينئذ هاجم طفيل المدينة وعاد إلى الإمارة كما أسلفنا.

وكان ودّي يتعاطى الشعر ويحب سماعه، ومن شعره ما ذكره الشهاب بن فضل الله، ذكر أنه كتب به إليه وهو في حبس السلطان الناصر سنة ٧٢٩، وأوله:

أيا ابن الكرام الطيبين بني عمرْ
ومن بهمُ في الجدب يُستنزَل المطرْ
ومن لهمُ في فضلهم ولجدّهمْ
ضجيع النبيّ المصطفى حسنُ السيرْ

---

(١) هكذا ذكر ابن حجر، ولكننا نرجح أن يكون ذلك بعد رجب ٢٨، لأن أمير المدينة في سنة ٢٧ لم يكن طفيلاً، وإنما هو أخوه كبيش.

وقال في وصفه: (سيد الوادي، ومسند النادي، مقيم السنة ومعليها، ورافض الرافضة ومقصيها)[1].

وكان وزيره في أثناء إمارته: محمد بن عبدالله بن مطرف العمري[2] (نسبة إلى عمر بن الخطاب)، وهو رجل ذو رأي وسياسة. وكذلك كان من خواصه: علي بن مطرف بن حسن العمري أيضاً، فلما آلت الإمارة إلى طفيل، أوقع به وبذويه، فجفلوا إلى القاهرة، وأقاموا بها، ولعليٍّ هذا شعر منه:

حمامةَ بطنِ الواديين أبيني
أدِينُكِ في شرع المحبة ديني؟
حنينُكِ لا يزداد إلا صبابةً
كذلك من دون الأنام حنيني[3]

٧ ـ سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة، ولي الإمارة خلفاً لابن عمه طفيل بن منصور بن جماز، حين عزله السلطان لأسباب سخطها منه، وذلك سنة ٧٥٠[4]، فدخل المدينة في ذي الحجة، وكان من أحسن أمراء الأشراف سيرة، شجاعاً وافر الهمة، ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة، وأول ما بدأ به في ولايته هو منع آل سنان وأمثالهم من الإمامية، من التعرض للأحكام وعقد الأنكحة، ورَدَّ الأمر كله لأهل السنة، ونادى في ثامن ذي الحجة في أسواق المدينة وأحيائها: أن لا

---

(١) الدرر ٤: ٤٠٦.

(٢) الدرر ٣: ٤٨٦.

(٣) الدرر ٣: ١٢٩.

(٤) الدرر ٢: ٢٤ وقد ذكر ابن حجر التاريخ خطأً (٧٠٣) في الترجمة، وذكره في أماكن أخرى صحيحاً.

حكم في المدينة إلا للقاضي الشافعي، شمس الدين بن السبع، ومن تعرض لذلك فلا يلومن إلا نفسه. قد يكون فعل ذلك عن توبة من الرفض واقتناع بمذهب أهل السنة، وقد يكون فعله إرضاء للسلطان وتقرباً للرعية.

ثم منعهم أيضاً من أن يدخلوا معه الحجرة الشريفة كعادتهم، وعين برهان الدين إبراهيم بن عبدالله المؤذن في هذه الوظيفة، فكان إبراهيم يدخل أمامه كلما أراد الزيارة، رافعاً صوته بالتسليم، وهو وراءه في أدب ووقار عظيمين.

ولكن عهده لم يطل، لأن ابن عمه (طفيل بن منصور) المعزول حاربه - كما أسلفنا - فجُرِح في إحدى معاركه معه، فمات متأثراً بذلك في شهر ربيع الأول سنة ٧٥٢، وولي بعده فضل بن قاسم بن قاسم بن جماز[1]. وابتدأ في عمل خندق حول سور المدينة، ولكنه مات قبل إكماله.

٨ - فضل بن قاسم... إلخ، كان شجاعاً مهيباً، ذا سياسة ورأي ودهاء، ولي الإمارة بعد موت ابن عم أبيه (سعد بن ثابت بن جماز)، حيث أجمع على تقديمه آل جماز جميعاً، وحلفوا له على الطاعة والنصرة، وخُطب له بحضورهم، وانتدبوا مانع بن علي بن مسعود ابن جماز للسفر للسلطان للحصول على موافقته، ونجح مانع في سفارته ورجع إليه بالخلعة والتقليد في جمادى الآخرة من سنة ٧٥٢، وقرىء منشوره على دكة المؤذنين، واستمر فضل في الإمارة معضداً بأقاربه إلى أن مات في سادس عشر ذي القعدة سنة ٧٥٤ ودفن

---

(١) الدرر ٢: ١٣٤ والتحفة ٢: ١٢٥.

بالبقيع في قبة الحسن والعباس، وهو الذي أكمل الخندق الذي كان قد ابتدأ بعمله سعد حول السور، واستقر بعده في الإمارة مانع بن علي[1].

٩ ـ مانع بن علي بن مسعود بن جماز، تولى الإمارة بعد موت فضل بن قاسم في آخر سنة ٧٥٤، واستمر فيها إلى أوائل سنة ٧٥٩، حيث فُصل بجماز بن منصور[2].

١٠ ـ جماز بن منصور بن جماز بن شيحة، قدم المدينة متولياً الإمارة بمرسوم من السلطان في ربيع الثاني سنة ٧٥٩، ففاجأ الناس بذلك مفاجأة جعلت آل جماز يفرون من الأسوار والأبواب ومنهم الأمير مانع، خوفاً من الإيقاع بهم، وكأنهم كانوا يحسون بحقده عليهم، وذلك لأمرين، لكونهم قدموا عليه مانعاً في الإمارة، ولما كانوا يعرفونه عنه من التعصب للإمامية، التي حاولوا هم أن يتناسوها منذ عهد الأمير سعد بن ثابت. وتركهم جماز يهربون، ونادى بعدم تتبعهم، ثم أراد تألّفهم فمنّ عليهم وعفا عنهم، غير أنه سعى سعياً حثيثاً في إرجاع الإمامية إلى ما كانوا عليه، فأذن ليوسف الشريشير بالقضاء بين الغرباء، وأعاد لهم تسلطهم على الناس، وبذلك ظهرت في المدينة كلمتهم، وارتفعت رايتهم.

وأظهر جماز للمجاورين كل أنواع الغلظة والجفاء، فسافر الناس في أثناء السنة إلى مصر، وتحدثوا بذلك، حتى بلغت أخباره السلطان، كما بلغه ما فعله بالشيخ ضياء الدين الهندي من تعذيب

---

(١) الدرر ٣: ٢٣٠ والتحفة ٣: ٣٩٥.

(٢) التحفة ١: ٩٤.

وضرب في القلعة، فاغتاظ من ذلك أيما اغتياظ، وبعث له مع الموسم شخصين أشقرين فدائيين أمرهما بقتله، فوصلا إلى المدينة مع الركب الشامي في حادي عشر ذي القعدة سنة ٧٥٩ فقتلاه، وكانت مدة ولايته ثمانية أشهر وعشرة أيام.

وقضى جماز غالب مدة إمارته مريضاً، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يحقق لنفسه الهيبة في قلوب الناس، ومن الشدة معهم في إجراء الأحكام، حتى دانت له البادية والحاضرة[1].

١١ ـ عطية بن منصور بن جماز، زين الدين، ولي الإمارة بعد مقتل أخيه جماز، حيث اجتمعت كلمة الأشراف عليه، وكان إذ ذاك غائباً عن المدينة، فعُرضت الإمارة على هبة بن جماز بن منصور، فرفضها، ثم عُرضت على زيان بن منصور، فقال: حاشاي أن أتقدم على أخي عطية، فهو أصلحنا وأولانا بها، وهو خير الناس لديننا ودنيانا، فاتفقت الآراء على تقديمه، وكتبوا إلى السلطان بذلك كتاباً مع نعير بن منصور بن جماز، فوافق السلطان على ذلك، وعاد نعير لأخيه عطية بالخلعة والتقليد في ثامن ربيع الآخر سنة ٧٦٠ فباشر عطية الإمارة منذ ذلك الحين، ثم عُزل بابن أخيه هبة بن جماز بن منصور في سنة ٧٧٣، ثم أعيد إليها في موسم سنة ٧٨٢، وظل فيها حتى مات سنة ٨٧٣، وفي نفس هذه السنة مات أخوه نعير بن منصور، والأمير هبة بن جماز بن منصور. فاستقرت الإمارة بيد جماز بن هبة بن جماز بن منصور.

وكان عطية رجلاً عابداً زاهداً، كارهاً للولاية، لولا ما خاف

(١) التحفة اللطيفة ١: ٤٢٦.

من خروجها من آل منصور لو تخلى عنها، ولهذا لم يكن يقيم في المدينة سنة متوالية، منذ وليها، بل كان ينيب فيها أحد إخوته أو أحد أولاده، ويسافر هنا وهناك، كراهية منه لمباشرة الأحكام، ولا يزال يشكو من المكس والعشور، ويمنع وزيره من أن يدخل شيئاً منها في طعامه أو شرابه، وعلم الله منه ذلك فعوضه بأحسن منها، راتباً حلالاً أكرمه به السلطان الأشرف فوق إقطاعاته ومخصصاته، وذلك بإشارة أتابك الدولة يلبغا، فسرّ بذلك سروراً كبيراً وعدَّه من نعم الله عليه.

وكان إذا صلى الصبح جلس في مصلاه لا يتكلم حتى يصلي الضحى، كما كان شديد التورع عن المواريث التي يعلم أن لها أهلاً غيّباً، يرعاها ويحفظها لهم، منفذاً لوصايا الأموات الذين لا وارث لهم، بعد أن كان غيره من الأمراء ربما استولى عليها وخص بها نفسه، وإلى جانب ذلك كان يخرج الزكاة من ماله بنفسه ويوزعها على المستحقين، ويحسن إلى الأرامل والأيتام وأهل الحاجات.

وردّ المدينة بعدله وصلاحه إلى حالة من الأمن والاستقرار ووفرة المال غبطها عليها غيرها من البلاد.

وكان يعيش عيشة عادية في مأكله ومشربه وملبسه، عازفاً عن كل مظاهر الإمارة، حكى القاضي الشمس أبو عبدالله محمد بن سليمان الحكري المقرىء أنه بلغه أن مرضاً ألم بالأمير عطية ألزمه بيته، فتوجه لعيادته، وحين دخل إلى بيته رأى شخصاً نائماً على حصير، ملتفاً بكساء عتيق، فظنه من بعض الخدم أو العبيد، فاتجه إليه يسأله عن الأمير، فإذا به هو الأمير نفسه، فذهب به العجب كل مذهب، وتبين له صدق صلاح هذا الأمير وتمام زهده.

وقد انعكس صلاح هذا الأمير العادل الزاهد على رعيته وعلى أقاربه من الأمراء، وذكر الناس بعهده عصر السلف الصالح، رحمه الله ورضي عنه[1].

منزلته العلمية:

كان الزرندي فقيهاً محدثاً أديباً.

فأما الفقه فقد بدأ الدراسة فيه على المذهب الشافعي، وهو مذهب معظم أفراد أسرته، فحفظ ربع كتاب الوجيز، ثم تحوّل حنفياً، وتفقه على مذهب الحنفية.

وأما الحديث فقد طلبه في المدينة وارتحل لأجله إلى دمشق، والقاهرة، وبغداد، وخوارزم، وخراسان، وغيرها، فسمع من أشياخها، وكان له بها أيضاً تلاميذ سمعوا منه ورووا عنه وقرؤوا عليه، ويظهر ذلك جلياً مما سنورده بعد قليل من أسماء شيوخه وتلاميذه، كما يظهر من امتداح المؤرخين وأهل التخصص له، فقد وصفه أبو حامد بن المطري بالشيخ الإمام العلامة المحدِّث، وقال التقي الكرماني: (قدم علينا سنة ٧٧١، فأقام سنة، وسمعنا عليه بقراءة سعد بن محمد الحنفي: الحديث، وكان يحضر مجلس والدي). ثم قال: (وكان شيخ الحديث واللغة).

وقال عنه ابن فرحون: (إنه حاز من العلوم ما لم يحزه أخواه ـ يعني أحمد ومحمداً ـ وانفرد اليوم باللغة والحديث ورجاله).

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ١٩٧.

وقال المجد: (كان من أفاضل الدهر وأماثل العلماء، وأوحد الزمان، وفريد الأقران، الراقي مراقي الأعلام، بالبنان واللسان والأقلام، مع القريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، تفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وحوى من فنون العلم كل نخبة طريفة). ثم قال: (وأحيا بإسماع الحديث ما دثر من عالمه وباد، وأجاد وأفاد، وأبدى وأعاد، ورفع أركان السنة وأساد).

وقال السخاوي: (ورأيته صحح نسخة من البخاري في سنة ٧٦٨ ونقح حواشيها) وهذه المنزلة الفقهية والحديثية هي التي أهلته لولاية القضاء والتدريس والحسبة في بلده المدينة سنة ٧٦٦ أيام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي، في عهد أميرها العادل عطية بن منصور بن جماز، فكان سيفاً لأهل السنة، قامعاً للبدعة، وهو أول قضاة الحنفية بالمدينة[1]، وبذلك أصبح في المدينة ثلاثة قضاة لأهل السنة، هم قاضي الشافعية وقاضي المالكية[2] وقاضي الحنفية. وقام الزرندي بالوظائف التي أسندت إليه أحسن قيام كما قال ابن فرحون.

---

(١) تم تعيينه بسعاية يلبغا الناصري. وفي صفحة عنوان المخطوطة جملة مضافة أنه تولى القضاء والحسبة سنة ٧٤٨ وما ذكره ابن حجر والسخاوي أصح في اعتقادنا.

(٢) بدأ قضاء الشافعية بالمدينة بالسراج عمر بن أحمد الدمنهوري حوالي سنة ٦٨٦، وبدأ قضاء المالكية بالبدر أبي محمد عبدالله بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون سنة ٧٦٥.

أما قضاء الحنابلة فقد بدأ بسراج الدين عبد اللطيف بن أبي الفتح الحسني الفاسي المكي سنة ٨٤٧ هـ. وهذا التنويع في القضاة يدل على مدى ما وصل إليه التعصب المذهبي بين الناس في تلك الأيام.

أما عن الأدب فقد أجاده نثراً وشعراً، وعرف معاصروه مكانته فيه، فقرّظوه وامتدحوه، ولعل هذه المقامة التي قمنا بتحقيقها تشهد بإجادته في مجال النثر وفقاً لمقاييس عصره، وقد وردت فيها نونيته المطوّلة التي امتدح فيها السلطان الناصر حسن، والتي مطلعها:

سلا من سلاني، والفؤاد له سكن
عسى يقرن الحسنى إلى وجهه الحسن

وهي قصيدة تشهد له كذلك بالمكانة المرموقة في عالم الشعر.

ومن شعره أيضاً مطوّلته التي يتشوق فيها إلى المدينة حين خرج إلى اليمن، والتي احتفظت التحفة اللطيفة لنا منها بمجموعة مطلعها:

هبّ إذ هبّ شمالٌ وصَبا
من كراء الصب شوقاً وصَبا
صبّ دمعاً فرجا في صبّه
فرجاً فازداد منه وصَبا
شاقه ذكرى ليالٍ سلفت
بلذيذ العيش أيام الصِّبا
يا رعى الله ليالٍ قد مضت
مع من نهوى ودهراً أخصبا
حين لا نخشى من الواشي وقد
غفلت عنا عيون الرُّقبا

ومطوّلته الأخرى التي منها:
أشتاق قربك والليالي تبعد
وأروم عَطفك والزمان ينكّد

مـا غـيّر الهجـرُ المقيمُ ولا الجـفـا
مـا كنتَ من حسـن المـودة تعـهـد
إن كـان في تـلفـي رضـاك فـإنـني
أهـوى هـواك، وأبتغي مـا يقصـد
ومن العـجـائب أنـني لـك سـائـل
والـدمـع مـني سـائـل مـتـبـدد

ونلاحظ بصفة عـامة تمكنـه من اللغة وسعـة ثقافتـه وتعمد المحسنات البديعية إلى درجة الإغراق، وهو بذلك يمثل ثقافة عصره أحسن تمثيل[1].

شيوخه:

نشأ الزرندي في أسرة مهتمة بالعلم مخلصة في دراسته، ذات ماض مجيد وطويل في علوم الفقه والحديث واللغة العربية، ويظهر ذلك جلياً من الرجوع إلى حديثنا عن أعلام أسرته بالإضافة إلى النشاط العلمي المتميز الذي امتازت بـه البيئة الحجـازية في مكـة والمدينة آنذاك، سواء من أهالي هاتـين المدينتـين أم من الوافـدين والمجـاورين، مع ميـل ظاهـر عند معـظم علماء ذلك العصـر إلى التصوف، وقد سمع الزرندي من مجموعة من الشيوخ المشهود لهم بالعلم، بعضهم كان في المدينة، وبعضهم كان في خارجها، منهم:

١ ـ إسماعيل بن إبراهيم بن أبي بكر التفليسي، نجم الدين، سمـع من النُجيب، وإسمـاعيـل بن عـزّون، وعثمـان بن رشيق، وغيرهم، وحدّث، مات سنة ٧٤٦ هـ عن ٨٩ عاماً[2].

(١) انظر ترجمة الزرندي في الدرر ٣: ١٤٢ والتحفة اللطيفة ٣: ٢٦٨ ـ ٢٧٢.
(٢) الدرر الكامنة ١: ٣٦٢.

٢ ـ محمد بن أحمد بن خلف المطري، الخزرجي، الأنصاري، الشافعي، جمال الدين، أبو عبدالله. كان جده خلف من الطور، لكنه انتقل منها إلى المطرية، فوُلد له أحمد بها، ثم انتقل أحمد هذا إلى المدينة، لخلوِّها حينئذ من عارف بالميقات، ورئيس للمؤذنين بالمسجد النبوي وفيها عُرف بالمطري، وبها وُلد له صاحب الترجمة سنة ٦٧٣ هـ، وفيها سمع على أبي اليمن بن عساكر كتابه: (تحفة الزائر)، كما سمع على خلف بن عبد العزيز القَبْتَوْري (الشفا)، وسمع أيضاً من غيرهما.

وقدم مصر مراراً، وسمع بها من الدمياطي، ولازمه كثيراً، ومن الشهاب الأبرقوهي. وسمع عليه (تحفةَ الزائر) محمد بن محمد الخشبي.

وخلف والده في رئاسة المؤذنين، وكان من أحسن الناس صوتاً، مشاركاً في العلوم، عارفاً بأنساب العرب، كما له مشاركة في نظم الشعر، وصنف للمدينة تاريخاً مفيداً سماه: (التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة)، ومات بالمدينة في سابع عشر ربيع الثاني سنة ٧٤١، وناب في الحكم والإمامة والخطابة عن القاضي شرف الدين الأميوطي، وقد سمع عليه الزرندي وعلى كافور الخضري في سنة ٧١٣ تاريخ المدينة لابن النجار[١].

٣ ـ الزبير بن علي بن سيد الكلّ، الأزدي، الأسواني، الشافعي، شرف الدين، نزيل المدينة. كان من بيت صلاح وخير وعلم، إماماً في القراءات، فقيهاً شافعياً. سمع عليه ابن فرحون،

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ٤٦٦ ـ ٤٦٩ والدرر ٣: ٣١٥.

والسراج الدمنهوري، وجماعة منهم الزرندي: (الشفا) و(دلائل النبوة) للبيهقي. ولد سنة ٦٦٠ هـ، وسمع على العز الحرّاني، والرشيد أبي بكر محمد، ومات سنة ٧٤٨ في شهر صفر[١].

٤ ـ محمد بن علي بن يحيى بن علي، أبو عبدالله، الأندلسي، الغرناطي، المالكي، نزيل الحرمين، وُلد سنة ٦٧١ هـ بأحواز غرناطة، وسمع بها من جماعة. وقدم القاهرة في سنة ٧٠٠ متوجهاً للحج، فسمع بالمدينة على القاسم خلف بن عبد العزيز النشوري، والكمال عبدالله بن محمد بن أبي بكر العثماني المالكي، وأبي عبدالله الفاسي. أثنى عليه الذهبي في (طبقات القراء)، وتوفي في صبيحة يوم الاثنين سابع صفر سنة ٧١٥ وله نظم أكثره من المدائح النبوية[٢].

٥ ـ محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جابر، أبو عبدالله، شمس الدين، الوادي آشي، فاضل أندلسي، نسبته إلى وادي آش، له برنامج في مروياته وأشياخه، وتوفي سنة ٧٤٦ هـ بغرناطة[٣].

٦ ـ محمد بن محمد بن علي بن إبراهيم بن حريث العبدري، البلنسي، حدّث بالموطأ عن أبي الحسين بن أبي الربيع، وتفنن في العلوم، وخطب بسبتة مدة، وأقرأ الفقه مدة، ثم تزهد ووقف كتبه وعقاره، ثم حج وجاور، ومات بمكة في جمادى الآخرة سنة ٧٢٢[٤].

تلاميذه:

وكان للزرندي عدد من التلاميذ، فقد كان ممن تولوا التدريس

---

(١) التحفة اللطيفة ٢: ٧٧.

(٢) التحفة اللطيفة ٣: ٦٨٤.

(٣) الأعلام ٧: ٣٥.

(٤) الدرر الكامنة ٤: ١٩٩.

في المسجد النبوي، وارتحل إلى البلاد المختلفة طلباً للحديث، وكثيراً ما كان يجلس فيها للتدريس، فيأخذ عنه الطلاب ويستفيدون من علمه الغزير، ومن هؤلاء التلاميذ:

١ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن روزبة، الجمال، والمحب، والشمس، أبو عبدالله، الكازروني الأصل، المدني، الشافعي، الشهير بالجمال أبي عبدالله الكازروني، ولد في ذي القعدة سنة ٧٥٧ بالمدينة، وبها نشأ في كنف عمه العز عبد السلام، وسمع من جماعة من أهلها والقادمين إليها، فسمع عن العز بن جماعة غالب: (السنن الصغرى) للنسائي، ومن الجمال الأميوطي: (جامع الترمذي)، ومن الجمال الخُجندي الحنفي، وابن صديق: (صحيح البخاري)، ومن أبي الحسن علي بن العز يوسف بن الحسن الزرندي القاضي سنة ٧٧١، سمع عليه ابن ماجه المجلس الأخير من روايته له عن العفيف محمد أبي عبدالله محمد بن عبد المحسن بن الدواليبي إجازة عن عجيبة البارقدارية عن أبي زرعة. ومن الزين العراقي، ومن القاضي البدر إبراهيم بن الخشاب.

وارتحل إلى مصر والشام وغيرهما، وأخذ عن البهاء أبي البقاء السبكي: الفقه والعربية، ولازم السراج البُلقيني، والبرهان الأنباسي. ولي قضاء المدينة في ربيع الثاني سنة ٨١٢، وذلك بعد موت القاضي أبي حامد المطري، ومات بالمدينة في ليلة الاثنين ثاني عشر شوال سنة ٨٤٣ هـ، ودُفن بالبقيع، وممن قرأ عليه بالمدينة سنة ٨٢٠ التقي بن فهد[١].

---

(١) التحفة اللطيفة ٣: ٤٩٨.

٢ ـ محمد بن محمد بن حسين بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة، الكمال، أبو البركات، ابن أبي السعود، القرشي، المخزومي، المكي. وُلد سنة ٧٦٥ هـ، وسمع على البهاء بن عقيل، والكمال بن حبيب، وأجاز له الصلاح ابن أبي عمر، وابن أميلة، وابن الهبل، وغيرهم، وسمع عليه جماعة منهم النجم بن فهد، وناب في الحسبة بمكة عن جده لأمه، ثم فيها مع القضاء عن قريبه الجمال ابن ظهيرة سنة ٨٠٨، فلما مات الجمال استقر في القضاء استقلالاً، غير أنه عُزل وأعيد أكثر من مرة، ومات مصروفاً عنه سنة ٨١٩ ودُفن بالمعلاة، وكان عفيفاً في قضائه، حشماً وقوراً قبل القضاء وبعده[1].

٣ ـ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عبدالله بن ظهيرة، الكمال، أبو الفضل، القرشي، المكي. وُلد باليمن، ونشأ بها، ثم حج، وأجاز له باستدعاء ابن فهد في سنة ٨٣٦ فما بعدها: خلقٌ، كالواسطي، والزركشي، والبرهان الحلبي، ومات بعد ذلك[2].

٤ ـ القاضي تقي الدين يحيى بن العلّامة شمس الدين محمد بن يوسف الكِرَماني، البغدادي، وُلد في رجب سنة ٧٦٢ هـ، وسمع من أبيه وغيره، ونشأ ببغداد، وشارك في عدة علوم، وقدم القاهرة هو وأخوه في حدود الثمانمائة بشرح أبيهما على البخاري، فابتهج الناس به، وكان عالماً فاضلاً، مقرباً من السلطان (شيخ)، وله عدة مصنفات منها: (شرح البخاري)، و(شرح مسلم)، وتوفي بالقاهرة

(١) الضوء اللامع ٩: ٧٧.
(٢) المرجع السابق ٦: ٢٩٧.

بالطاعون سنة ٨٣٣ يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة[1].

٥ ـ أبو الطاهر جلال الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن جلال الدين محمد بن جمال الدين محمد، الخُجندي، ثم المدني، الحنفي. ولد سنة ٧١٩ هـ، حفظ القرآن، ودرس علوم العربية والشريعة، والرياضيات من حساب وجبر ومقابلة، كما درس الطب، والتصوف، فكان بذلك متعدد مصادر الثقافة، واسع الاطلاع. ومن شيوخه في خجند: أوحد الدين المنيري، درس عليه الجبر والمقابلة، والصرف، والنحو، والعروض، وغيرها. وسيف الدين الحسامي، قرأ عليه ديوانه، والزبدة، وهي مختصر القانون في الطب، ومقامات الحريري.

ثم ارتحل من خُجند في سنة ٧٤١ إلى سمرقند، وفيها درس على شمس الأئمة ابن حميد الدين الزرندي، وخواجا حسام الدين بن عماد الدين.

ثم ارتحل إلى بخارى، ودرس فيها على صدر الشريعة، واستفاد منه. وسيف الدين الفَرْبري، وعلاء الدين الغوري.

ثم دخل خوارزم، وفيها أخذ عن السيد الجلال الكيلاني الحنفي، والبهاء الحلواني، وحافظ الدين التفتازاني، والفخر الخوارزمي.

وهكذا تنقل في البلاد إلى أن وصل إلى دمشق، فلقي فيها ناصر الدين بن الربوة، والحسام المصري، والعلامة ابن اللبان وغيرهم.

ثم ارتحل إلى الحج ولقي علماء الحجاز، وفي طريق عودته إلى

---

(١) شذرات الذهب ٧: ٢٠٦ والتحفة اللطيفة ٣: ٢٧٠.

دمشق، مرّ ببيت المقدس فلقي شيوخها وسمع منهم، وفي مقدمتهم الحافظ الصلاح العلائي، والجمال البسطامي.

ثم حج مرة أخرى، ونوى المجاورة بالمدينة، ثم فارقها إلى بغداد، وقرأ فيها على الشمس الكرماني، والشهاب فضل الله السيرافي، والفخر العاقولي.

ثم رجع إلى المدينة الشريفة في سنة ٧٦٦ ولم يفارقها إلى أن مات سنة ٨٠٢ عن عمر جاوز الثمانين، ودفن مع شهداء أحد. وسمع في المدينة على العفيف المطري، والعفيف اليافعي، والأمين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الشمّاع المصري، قاضي القدس، والعز بن جماعة، والبدر أبي محمد عبدالله بن محمد بن فرحون، والقاضي نور الدين علي بن العز يوسف الزرندي، سمع عليه مسند الطيالسي، والبعض من الصحيحين، والترمذي، وابن ماجه، وحديثه من لفظه بمكارم الأخلاق للطبراني، وبمناظرة الحرمين له بكماله. وأجازه، وتزوج ابنته عائشة، واستولدها.

كما سمع في المدينة من البهاء أحمد بن التقي السبكي.

وأقام في المدينة أكثر من أربعين سنة يدّرس ويفتي، وولي فيها تدريس الأمير يلبغا.

ومن تلاميذه أيضاً أبو الفتح المراغي، ونور الدين علي بن محمد بن يوسف الزرندي (ابن أخ صاحبنا علي بن يوسف صاحب المقامة).

ومن تصانيفه: شرح الأربعين النووية، وحاشية على الكشاف،

والشراب الطهور، وهو في التصوف، وغيرها[1]، وتتابع نسله بالمدينة، ومنهم ولده برهان الدين إبراهيم بن أحمد المولود سنة ٧٧٩، والمتوفى سنة ٨٥١، ودفن بالبقيع، وكان من علماء المدينة المعدودين[2].

٦ ـ أسد بن محمد بن محمود، الجلال، الشيرازي[3]، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنفي، قدم بغداد في صغره، فاشتغل على الشمس السمرقندي في القرآن، والقراءات، والفقه. ثم حضر مجلس الكرماني، وقرأ عليه (البخاري) كثيراً، وجاور معه بمكة، وكان يقرىء ولديه وغيرهما في النحو والصرف وغير ذلك، وكان ذا دين وتعفف وتواضع وخط حسن. وقدم دمشق وولي إمامة الخانقاه السميساطية بها، ودرّس وحدّث وأفاد، ومات بها في جمادى الآخرة سنة ٨٠٣ وقد جاوز الثمانين[4].

٧ ـ محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي الحسن الزمرُّدي، ابن الصائغ، شمس الدين، الحنفي، النحوي. وُلد سنة ٧٠٨ هـ، وسمع من الحجّار، والدبوسي، وغيرهما. واشتغل في عدة فنون، ودرّس بجامع ابن طولون للحنفية. وولي قضاء العسكر، وكان فاضلاً بارعاً، حسن النظم والنثر. ومن تصانيفه: (شرح الألفية) في مجلدين، و(شرح المشارق) ستة مجلدات، و(التذكرة النحوية)، و(المباني

---

(١) التحفة اللطيفة ١: ٢٥٣ ـ ٢٦٤.

(٢) التحفة اللطيفة ١: ١٠٥.

(٣) في التحفة اللطيفة ٣: ٢٦٩: أسعد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمود بن الحاج محمد الشيرازي، الملقب جلال.

(٤) الضوء اللامع ٢: ٢٧٩.

في المعاني)، و(المنهج القويم في القرآن العظيم)، و (الثمر الجَنّي في الأدب السَّنّي)، و(الغمز على الكنز)، و(الاستدراك على مغني ابن هشام)، وتوفي سنة ٧٧٦، ومن شعره:

بــروحي أفـدي خــالـه فــوق خــده
ومن أنا في الـدنيــا أفـدّيــه بــالمـال
تبــارك من أخـلى من الشعــر خــدّه
وأسكن كلَّ الحسن في ذلك الخـال[١]

* * *
* *
*

(١) شذرات الذهب ٦: ٢٦٠.

هذه المقامة

بعد أن تحدثنا عن المؤلف وما يتصل به، مما اعتقدنا أنه يساعد على الكشف عن شخصيته العلمية والأدبية، ويضوِّىء للقارىء جوانب حياته المختلفة فإنه قد يكون من المناسب أن نتحدث عن المقامة موضوع التحقيق، ولكي يكون حديثنا عنها مفيداً نرى لزاماً علينا أن نقدم لذلك بكلمة موجزة عن فن المقامات ننطلق من خلالها إلى وضع هذه المقامة في إطارها الفني، مشيرين إلى مدى توفيق صاحبها في تحقيق الخصائص الفنية التي تعارف عليها النقاد والأدباء لفن المقامات، منذ ظهوره كجنس أدبي متميز في العصر العباسي إلى مطلع العصر الحديث.

جاء في لسان العرب: المقامة: (المجلس، والجماعة من الناس).

وجاء في المعجم الوسيط: (المقامة: الجماعة من الناس، والمجلس، والخطبة أو العظة، أو نحوهما، وقصة قصيرة مسجوعة، تشتمل على عظة أو مُلحة، كان الأدباء يظهرون فيها براعتهم).

ومما جاء منها في الشعر الجاهلي بمعنى المجلس قول زهير بن أبي سلمى:

وفيهم مقـامـاتٌ حسـانٌ وجـوهُهـا
وأنـديـةٌ ينتـابُهـا القـولُ والفعـلُ

قـال أبو العبـاس ثعلب في شرح هـذا البيت: المقـامـات: المجالس، وإنما سُمّيت المقامات، لأن الرجل كان يقوم في المجلس فيحض عـلى الخير ويصلح بـين الناس، قـال عبـاس بن مـرداس السُّلمي:

فـأيِّـي مـا وأيُّـكَ كـان شـرَّاً
فَـسِيـقَ إلى المـقـامـة لا يـراهـا

ويقال: هو مقامة قومه، إذا كان يقوم فيتكلم في الحض على المعروف[1].

وقال سلامة بن جندل الطُّهوي:

يـومـان: يـوم مقـامـات وأنـديـةٍ
ويـوم سـير إلى الأعـداء تـأويبِ[2]

وعليه قوله تعالى: ﴿أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نديّاً﴾[3] قال القرطبي: المقام: الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة، أي: أيُّ الفريقين أكثر جاهاً وأنصاراً. ؟[4].

وبمعنى الجماعة من الناس يضمها المجلس جاء قول لبيد:

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - لأبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني (ثعلب) ص ١١٣ الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٤ م.
(٢) الكامل للمبرد ٢: ٦٣.
(٣) سورة مريم - آية ٧٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١: ١٤٢ دار الكتب ١٩٦٣ م.

ومــقــامــةٍ غُـلْـبِ الــرقــابِ كــأنهم
جِنٌّ لــدى بــاب الحصــير قــيــامُ[1]

وفي عيون الأخبار نجد ابن قتيبة يعقد فصلاً في (كتاب الزهد) تحت اسم: (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك)[2]، جمع مقام لا مقامة، عنى بها: المجلس يقوم فيه أولئك الزهاد بين يدي الخلفاء يعظونهم ويحدِّثونهم عن النافع والضار.

وفي الحقيقة لا فرق بين المذكر والمؤنث في الدلالة على هذا المعنى، فقد يعبَّر بالمقام أو المقامة، والمعنى واحد، وبالتأنيث جاء قول بديع الزمان في أحد الواعظين: (غريب لا أعرف شخصه، ما صبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبىء بعلامته)[3] يعني إلى آخر حديثه وعظته.

وهي بهذا الاستعمال اللغوي الأخير تصبح دالة على حديث الشخص في المجلس، سواء كان قائماً أم جالساً، ولعل هذا ما سهل على بديع الزمان الهمذاني أن ينقل اسم هذا الفن النثري من كلمة (حديث) التي أطلقها عليـه منشئه الأول ابن دريـد[4]، إلى كلمة (مقامة)، ويتلقاها الناس بعده بالقبول.

أما المعنى الاصطلاحي للمقامة فهو ما أشار إليه المعجم الوسيط بقوله: (وقصة قصيرة مسجوعة. . إلخ). ويقول زكي مبارك: (وهي

(١) الغُلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة. والحصير: الملك، سمي بذلك لأنه محصور، أي محبوس. ويروى: (وقُماقمٍ غُلب الرقاب. . إلخ)، والقُماقم: العدد الكبير.

(٢) عيون الأخبار، لابن قتيبة ٢ : ٣٣٣ دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م.

(٣) مقامات بديع الزمان ص ١٤٣ - بيروت. (المقامة الوعظية).

(٤) انظر النثر الفني في القرن الرابع ١ : ٢٤٣ الدكتور زكي مبارك - دار الجيل - بيروت ١٩٧٥ م.

القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون)[1].

أما عمر فروخ فيقول: (والمقصود بالمقامة في الأدب: قصة تدور حوادثها في مجلس واحد)، ثم يعود فيقول: (المقامة: قصة وجيزة، أو حكاية قصيرة مبنية على الكدية ـ الاستعطاء ـ)[2].

ويقول شوقي ضيف: (وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبَّر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة من كلمة حديث، وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة، يتأنق في ألفاظها وأساليبها.. إلخ)[3].

وهكذا نجدهم جميعاً متفقين على أن الشكل الذي تُستفرغ فيه المقامة هو القصة، وتلك خصيصة بلا شك من خصائصها، ولكن لا ينبغي أن نفهم من هذا أن المقامة لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان القصة بالمفهوم الفني للقصة، وبالتالي فهي ليست جنساً أدبياً متميزاً، بل ينبغي أن نفهم أن في المقامة روح القصة، وأنها تشترك معها في بعض أدواتها، وأنه كان يمكن أن يشتق منها فن القصة عند العرب لو اتخذت إليه مساره الصحيح، أو قصد كتَّابها إليه، ولكن يبدو أن فطرة العرب لم تكن تميل إلى القصص المعقد الذي وجد عند غيرهم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢: ٤١٢ عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨ م.

(٣) المقامة ـ للدكتور شوقي ضيف ص ٩ دار المعارف ـ بمصر ١٩٥٤ م.

من الأمم كاليونان في القديم، والأوروبيين في الحديث، وشاء الله أن يكون فن القصة من الفنون الدخيلة على الأدب العربي في هذا العصر، ولا يفوتنا أن نسجل أن في بعض مقامات بديع الزمان ما يصلح أن يكون نموذجاً للقصة القصيرة، ففيها عقدة، وفيها تحليل للشخصيات، وخير ما يمثل ذلك المقامة المضيرية، والمقامة البغدادية[1].

وهي ذات موضوع، وهذا الموضوع إما أن يكون أدبياً، وإما أن يكون فلسفياً يعرض فكراً معيناً، وإما أن يكون وجدانياً خالصاً، وإما أن يكون مجونياً منافياً للأخلاق الحميدة أحياناً، وإما أن يكون فقهياً أو نحوياً أو عروضياً، ونحو ذلك.

وهذا يوصلنا إلى خصيصتها الثالثة، وهي الغاية الأساسية منها، إنها في الغالب تعليمية، تتمثل في وضع نماذج من الأساليب اللغوية المنمقة أمام أعين الناشئة للاقتداء بها، والحصول منها على ثروة لغوية واسعة، ولذلك نراها عادة تشتمل على مجموعة من الأمثال السائرة، والأشعار الجيدة التي تصلح للاستعمال في المناسبات المماثلة، أو التي تحتوي على ما ينشط الذهن، ويساعد على شحذ القريحة وإعمال الفكر، فهي على هذا الأساس تتيح لقارئها رياضة ذهنية لغوية وسياحة في رياض الأساليب المنمقة، ولهذا كان الزخرف اللفظي القائم على استعمال المحسنات البديعية المختلفة، هو خصيصتها الرابعة، فالسجع والجناس والطباق والمقابلة والموازنة والتورية، والإعجام والإهمال، وغيرها من ألوان البديع، من أهم ركائزها. وهذه الغاية التعليمية ـ كما يرى شوقي ضيف ـ غلَّبت اللفظ على

---

(١) النثر الفني ص ٢٥٢.

المعنى في المقامة، (فالمعنى ليس شيئاً مذكوراً، إنما هو خيط ضئيل تُنشر عليه الغـاية التعليميـة). ولا شك أن الغـاية التعليميـة من أسـاسيات المقـامة، ولكن لا ينبغي حصـرها في الميـدان الأسلوبي واللغوي، ففي المقامة أفكار ومعان وحقائق أيضاً، من هدف كاتبها أن تصل إلى القارىء، ولهذا قال زكي مبارك في أثناء تحديده لمفهومها الاصطلاحي: (يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية.. إلخ)، وقال قبل ذلك في التوطئة للحديث عن المقامة: (إنما نريد أن نتكلم عن القصص الذي وضع قصداً، والذي أراد أصحـابه أن يدوِّنوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخدمون بها بعض الأحزاب، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية، أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق)[١].

ويقول عمر فروخ عن فكرة المقامة: (وتكون عادة فكرة طريفة أو جريئة، ولكنها لا تحث دائماً على الأخلاق الحميدة)[٢].

ويقول زكي مبارك في مكان آخر، مبيناً الفروق بين المقامات في العصور المختلفة: (والفـرق يرجـع إلى صور الثقـافات في مختلف العصور، فبديع الزمـان صوَّر مشكـلات عصره، والحـريري مثَّـل معضلات زمانه، والسيوطي فصَّل أوهام الناس وعلومهم في أيامه، وجاء محمد المويلحي في العصر الأخير، فوضع كتاباً في نقد الحياة الاجتماعية في مصر).

---

(١) النثر الفني ص ٢٤١.

(٢) تاريخ الأدب العربي - عمر فروخ - ص ٤١٤.

فالمقامة على هـذا النحو ذات وظيفـة فكريـة: اجتماعيـة أو سياسية أو فلسفية أو أدبية، وليست مجرد تلاعب باللفظ وتأنق في الأسلوب، وليست هي مجرد متون لغوية كما يحلو لبعضهم أن يقول، وإنما كتابها يتفاوتون في تحقيق التوازن المطلوب بين المعاني والألفاظ، كما هو الشأن في أي عمل أدبي آخر، والغريب بحق، هو أن هذه الغاية النفعية للمقامة لم تغض من مكانتها الفنية، ولم تكسف من جمالها وروائها، ولم تفقدها روعتها الأدبية، مما جعلها تستمر على مر العصور الأدبية، منذ نشأتها، بحيث لم تختف إلاَّ في العصر الحديث، بعد شيوع الفن القصصي بفنياته الغربية.

فقد كانت بذورها في أحاديث أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى سنة ٣٢١، واكتمل تخلقها على يد بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨، وحذا حذوه أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدي المتوفى سنة ٤٠٥، وأبو القاسم عبدالله بن محمد بن ناقيا[1] المتوفى سنة ٤٨٥، ثم بلغت قمة نضجها على يد أبي محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ حتى صارت مقاماته نموذجاً لمن جاء بعده ممن جرَّب حظه في كتابة المقامات، وغدا حفظها من لوازم المنشئين والمتأدبين.

وحاول تقليده في ذلك أبو الطاهر محمد بن يوسف السَّرَقُسْطي المتوفى سنة ٥٣٨، وسقطت مقاماته من يد الزمن فلم تصل إلينا.

ويؤلف جار الله الزمخشري المتوفى أيضاً سنة ٥٣٨ مقامات تدور كلها على الوعظ، يخالف فيها من سبقه، فلا يضع لها راوياً ولا

(١) لم يبق من آثار ابن ناقيا إلاَّ تسع مقامات، تم طبعها، وأصلها محفوظ بمكتبة (الفاتح) في استانبول.

بطلاً، بل يبدؤها بخطاب نفسه[1].

وفي القرن السادس أيضاً نلتقي بالحسن بن صافي المصري الملقب بملك النحاة، فنجده يصنف مقامات على نسق مقامات الحريري، ومثله صنع أبو العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصراني الطبيب، صاحب المقامات المسيحية.

وفي نهاية القرن نجد ابن الجوزي يؤلف خمسين مقامة في موضوعات أدبية مختلفة، ويسعى بها نحو الوعظ على نحو ما سعى الزمخشري في مقاماته، وكذلك فعل معاصره أبو العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي[2]، قلد فيها الحريري.

وتكثر المقامات ويكثر المقلدون بعد القرن السادس، وتتسع الموضوعات التي تخوض فيها، فقد يكون الفقه والحديث والنحو كما في مقامات ابن الصيقل الجَزري المتوفى سنة ٧٠١ وعدتها خمسون، وقد يكون موضوعها مناظرة بين بلدين كما في مقامتنا هذه التي نحققها للزرندي المتوفى سنة ٧٧٢، وقد يكون وصف الحيوانات، مثل مقامات ابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩، وقد يكون وصف البلدان، مثل مقامات ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩.

وربما كانت مقامات السيوطي المتوفى سنة ٩١١ أشهر المقامات التي صنفت في العصور المتأخرة ولم يكن لها راو ولا بطل، أما موضوعاتها فقد تكون خيالية، مثل الحديث عن أنواع الطيب وفوائد كل نوع ومفاخره، وأنواع الرياحين والزهور ودفاع كل نوع عن

---

(١) وهي مقامات مطبوعة.

(٢) وهي ثلاثون مقامة مطبوعة في استانبول مع مقامات ابن ناقيا في مجلد واحد.

نفسه، وقد تتحدث في موضوع جدلي مما يتناقش فيه الفقهاء، أو اجتماعي كالرخاء والغلاء.

ويظل الحريري هو النموذج الأسمى لكتَّاب المقامة، فنرى بعض الأدباء في مطلع العصر الحديث يعودون إلى تقليده والنسج على منواله، ومن أشهر من قلدوه في القرن الماضي: الشيخ حسن العطار في مصر، وشهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبدالله الألوسي، في العراق[1]، وأحمد فارس الشدياق، وناصيف اليازجي في الشام[2].

وكما كان للمقامات هذا التأثير الضارب في أعماق تاريخنا الأدبي، وعدم اختصاصها بموطن عربي دون موطن، كان لها أيضاً تأثير في آداب اللغات التي كانت على صلة باللغة العربية من شرقية وغربية، فقد ألف القاضي حَميد الدين أبو بكر بن عمر البلخي ثلاثاً وعشرين مقامة في الفارسية، على نسق مقامات الحريري، أتمها سنة ٥٥١، وقام يهوذا بن ثلومر الحريزي بترجمة مقامات الحريري إلى العبرية، ثم أنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها: (سفر تَحْكُموني) أي كتاب الحكمة، وبما أنه من رجال الدين فقد ضمنها كثيراً من آيات التوراة. ونظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين مقامة أو قصيدة على نمط مقامات الحريري، ضمنها جملة من العظات والأخلاق، في لغة مثقلة بالزخارف والتهاويل[3].

وفي بعض القصص الأسباني الذي يصف حياة المتشردين

---

(١) طبعت في كربلاء ناقصة (انظر مقدمة تحقيقنا لكتاب شهي النغم للألوسي ص ٢١).

(٢) المقامة ـ لشوقي ضيف ـ ٨٠ ـ ٨٣ ومقامات الشدياق واليازجي مطبوعة.

(٣) النثر الفني ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

والشحّاذين يبدو أثر المقامات العربية واضحاً أيضاً، فلهذا القصص عندهم بطل يسمى بيكارون (Picaroon)، وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان، وأبا زيد السروجي عند الحريري[1].

وإذا كان عمر فروخ استمد للمقامة خصيصة بنائها على الكدية، من النظر في مقامات البديع والحريري، فإنها استغنت عن هذه الخصيصة في كثير من أطوارها، وأجراها الكاتبون كما يقول شوقي ضيف: (في مختلف الشؤون الثقافية، وحمّلوها نحواً وفقهاً وطبّاً، ووضعوا فيها مناظرات خيالية، كما وضّحوا بها أحياناً جوانب من مجتمعاتهم)[2].

ولعله يحق لنا بعد هذا التحديد الذي قدمناه للمعنى اللغوي والاصطلاحي للمقامة وفي ضوء ما عرضناه، أن نوجز خصائصها فيما يلي:

١ ـ يجب إفراغها في قالب قصصي جذاب قائم على الوصف والحوار.

٢ ـ ينتهج فيها الأسلوب المسجوع، إلى جانب المحسنات البديعية الأخرى، كما يحسن اشتمالها على بعض الأشعار والأمثال.

٣ ـ ينبغي أن تعالج فكرة أو موضوعاً معيناً، لا يشترط أن يكون على صلة بالأخلاق الحميدة، وقد تكون للفكاهة الصرفة.

٤ ـ يكون لها في الغالب بطل، وراو يقص حكاية ذلك البطل،

(١) المقامة ص ١١.

(٢) المقامة ص ١٠.

ومن خلال تلك الحكاية تبرز شخصيات أخرى ثانوية.

وقد تكون مجرد مناظرة أو موعظة مصوغة في قالب قصصي حواري.

٥ ـ ليس من الضروري بناؤها على الكدية، رغم أن علَميها: البديع والحريري، ومن سار على هديهما، أقاموها عليها، فقد ظهرت عند بعض كاتبيها بعدهما خالية منها.

٦ ـ تختلف المقامة باختلاف ثقافة العصر، ويكون محتواها صدى لتلك الثقافة.

٧ ـ تدور أحداثها في مجلس واحد، لا تنتقل منه إلَّا فيما شذَّ وندر.

المرور بين العلَمين في مفاخرة الحرمين:

لا نعتقد أن للزرندي مقامة أخرى غير هذه المقامة، إذ لو كان له غيرها لأشار إليها من ترجموه أو تناولوا هذه المقامة بالمديح والتقريظ، لكن لا مانع أن تكون له كتابات أخرى في غير هذا الميدان، أدبية أو علمية، فقد قال السخاوي: (ورأيته صحح نسخة من البخاري في سنة ٧٦٨ ونقح حواشيها)[1]. ولعل لثقافته العلمية الشرعية دخلاً في جعله موضوع المقامة فقهياً، فهو يعالج فيها قضية التفضيل بين مكة والمدينة، وهي قضية شغلت أذهان كثير من المسلمين على مستوى العامة والخاصة، مما جعل سلف هذه الأمة لا يحبذ الخوض في هذه القضية، فكلا البلدين محبب إلى الله ورسوله،

(١) التحفة اللطيفة ٣: ٢٦٩.

مخصوص بمجموعة من الفضائل، وقد ألف السيوطي في هذه القضية رسالة سماها: (الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة)[1]. فموضوعها إذن في منتهى الجدية، ولذلك اشتملت على عدد من الأدلة الحديثية والقرآنية، فالمقامة من هذه الناحية أشبه شيء ببعض مقامات السيوطي.

أما كلمة العلَمين الواردة في عنوان المقامة، فهي تثنية علَم، وهو العلامة الزمانية والمكانية، وعلى المعنى الأول جاءت قراءة بعضهم في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وإنه لعلَمٌ للساعة﴾[2]، أي أن ظهور عيسى ونزوله إلى الأرض علامة تدل على اقتراب الساعة. وعلى المعنى الثاني جاء قوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾[3] ومنه ما يبنى في جوادّ الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق، والحدُّ الفاصل بين أرضين، قال في اللسان: مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه[4].

قلت: هي في حدود الحرم المكي عبارة عن بناءين مرتفعين متقابلين تفصل بينهما مسافة تسمح بمرور أكثر من سيارة، يدلان على بداية الحرم للقادم ونهايته للمغادر، يسمى كل منهما علَماً، وقد وردا مصغرين في قول ابن الفارض يتشوق إلى معالم الحجاز:

يا رعى الله يومنا بالمصلَّى
حيث نُدعَى إلى سبيل الرشاد

---

(١) وهي مطبوعة.

(٢) الزخرف ـ آية ٦١.

(٣) الرحمن ـ آية ٢٤.

(٤) لسان العرب ـ مادة (علم).

وقبـــابُ الــرِّكـــابِ بـــين الـعُـلَيْـمـيـ
ـنِ ســـراعـــاً لــلمـــأزمـــين، غـــوادِ

فإذا ما انتقلنا إلى الجوانب الأخرى للمقامة عدا الموضوع، فإننا نجد جميع الخصائص منطبقة عليها، متحققة فيها.

فالقالب قصصي جذاب، قائم على الوصف والحوار، فالوصف يتجلى في مثل قوله: (فبرز حرم المدينة الشريفة وتسنم شـرفاً من الشرف عال، واستفتح المقال فقال:)، وقوله: (فلما سمعت المدينة هذه المقالة، اشتعلت ولا اشتعال الذبالـة، وبرزت بـين أنصارهـا وأعدائها كالبدر وسط الهالة.. إلخ)، وقوله: (فحين قرع سمع مكة هذا الكلام، وفزعت بما ألقي إليهـا من الملام، قـامت وقعدت، وبرقت ورعدت، وسفرت عن وجهها فضل نقابها، وكشفت ما كانت سدلت من حجابها، ودخلت إلى ميادين المفاخرة من بابها، ونطقت بما فيها، وأظهرت السرائر التي كانت تخفيها).. إلخ.

والحوار ظاهر من المرادَّة بين المدينة ومكة، وتناوب الكلام بينهما نفياً وإيجاباً، ومحاجَّة ومناقشـة، فمرة تتكلم هـذه، وأخرى تتكلم تلك، وهكذا.. مع حسن عرض وجمال تناول، وبعض المفاجآت التي تأتي بعد أن يعتقد القارىء أنه قد استُفرِغت كل حجة، واستُنفِد كل دليل.

وقد نهج الزرندي أيضاً في مقامته أسلوب السجع والمحسنات المختلفة، كما هو الشأن في المقامات، ويبدو أنه كان متمكناً من فنه، مسيطراً على توزيع ألوان البديع في ثنايا النص بشكل واضح، فيه كثير من البراعة والمهارة، وقد أورد كذلك مجموعة من الأمثال أشرنا

إليها في الهوامش، كما أورد عدداً من الأبيات الشعرية المناسبة، بل وقصيدة كاملة من إنشائه.

ولم يبن مقامته على بطل وراو، بل سلك بها طريق المناظرة والمحاضرة، واكتفى بقوله: (حُكي)، و(ذُكر)، فقال في بـدايتها: (من طريف المحاضـرة، وظريف المـذاكرة، مـا حُكي من مناظـرة الحرمين، ومناضلة المحلَّين المعظمين، ذُكر أنهما اجتمعـا في ميدان الفخر.. إلخ)، فهي في عداد المقامـات الواردة في المفـاخرة بـين البلدان، وهو في هذا يقلد الزمخشري، ويسبق السيوطي، اللذين لم يكن لمقاماتهما راوٍ ولا بطل ـ كـما أسلفنا ـ ويلتقي معهـما أيضاً في الابتعاد بالمقامة عن الكدية، ويشترك مع السيوطي أيضاً في الاعتماد على روح المناظرة والمفاخرة، فقد كـانت بعض مقامـات السيوطي كذلك كما ذكرنا.

وقد جرت أحداث المقامة بين مكة والمدينة في مجلس واحد، ثم انتقلتا إلى مجلس السلطان للاحتكام عنده، وعرْض مشاكلهما لديه، وفي أثناء عرض هذه المشاكل كشف عن جوانب اجتماعية كـانت قائمة في زمانه بالبلدين المشرّفين، كما كشف عن مـدى ارتباطهـما السياسي بسلاطين المماليك، فالمقامة من هذه الناحية مرتبطة بعصرها أيما ارتباط، ممثلة له أيما تمثيل.

ومما سبق يتبين أن المقامة التي بين أيدينا مقامة متكاملة، لا يعوزها شيء من الشرائط الفنية اللازمة للمقامات، ولا ينقصها مقوّم من مقوماتها، وهي تثبت مع رصيفتها مقامة الكازروني (المفاخرة بين قباء والعوالي)[١] إسهام المدينة المنورة في مسيرة فن المقامات كغيرها

---

(١) أخبرني أخي الدكتور عبدالله عسيلان أنه بدأ في تحقيقها.

من الحواضر العربية العريقة المعطاء.

أما عن صحة نسبة هذه المقامة لصاحبها الزرندي فهي مما لا يتنازع فيه اثنان، فقد حظيت بتقريظ عدد كبير من معاصريه، واستحق من أجلها منهم وافر المدح وعاطر الثناء، كما ذكرها وأشاد بها كل من ترجموا له، كابن حجر الذي قال: (وله مقامة بديعة في المفاخرة بين مكة والمدينة)[1]، والسخاوي الذي قال بعد أن ساق خبر المقامة عن ابن حبيب: قلت: سماها: (المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين)[2].

جملة من العلماء والأدباء الذين قرظوا هذه المقامة

١ ـ الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، بدر الدين، أبو محمد، الدمشقي، ثم الحلبي. ولد سنة ٧١٠ هـ ونشأ محباً للأدب، مشتغلاً بالحديث، سمع من والده عمر، ومن إبراهيم بن صالح، وفخر الدين ابن خطيب جبرين، وغيرهم. كما أخذ الأدب عن ابن نباتة وغيره، وحدّث عنه ابن عشائر، وابن ظهيرة، وسبط بن العجمي، وغيرهم. ومات سنة ٧٧٩.

وله: (نسيم الصبا)، و(درة الأسلاك في دولة الأتراك)، وهو قائم على السجع. ومن شعره:

ألحاظه شهدت بأنيَ ظالم
وأتت بخط عذارِه تذكارا

(١) الدرر الكامنة ٣: ١٤٢.

(٢) التحفة اللطيفة، والضوء اللامع.

يـا حـاكـم الحب اتئـد في قـصـتي

فـالخط زور، والشهـود سكـارى[1]

٢ ـ الحسن بن سليمان بن زيان، شرف الدين، الطائي، موقّع الإنشاء بحلب، وُلد في شوال سنة ٧٠٢ هـ، وكان أبوه ناظر الدولة، فنشّأه نشأة حسنة، وتعاطى الآداب، وكان رقيق الحاشيـة، حسن المجالسة، وتوفي سنة ٧٧٠، وهو القائل:

كـأن الهـلال بـجـوّ الـسـماء

وقـد قـارب الـزهـرة الـنـيّـرة

سـوار لحـسـنـاء مـن عـسـجـد

عـلى قُـفـلـه رُكِّـبـت جـوهـرة[2]

٣ ـ الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد الموسوي، الحسيني، شهاب الدين، الشهير بأبي الركب، ولد سنة ٦٩٨ هـ، وولي التوقيع بالقاهرة، ونقابة الأشراف، ومهر في النظم والنثر، له إجازة من ابن دقيق العيد، والدمياطي، وغيرهما. وكان متواضعاً، دمث الأخلاق. وله ديوان خطب سماه: (المقال المحبّر، في مقام المنبر)، عارض به خطب ابن نباتة، ومات سنة ٧٦٢، ومن شعره مجيباً الصفدي عن كتاب وصله منه:

أنسيمُ الصَّبـا عـلى الـروض غـدوةْ

سـحـبـت ذيـلهـا عـلى كـل ربـوه

وسـرى لـطفهـا إلى الـدوح فـارتـا

ح، فكم رنّحت معـاطف سـروه.؟

---

(١) الدرر الكامنة ٢: ٢٩.

(٢) الدرر الكامنة ٢: ٥٥.

أم حـديث (العُذيب) يعـذب في كـلِّ
لهــاةٍ لمــن تــذكَّــر لهــوه.؟
أم كتــاب قــد جــاءني من خليــلٍ
بــارع، فـالخليـل لم ينـحُ نحــوه[1].؟

٤ ـ محمد بن أحمد بن علي بن جابر، الأندلسي، أبو عبدالله، الهواري المالكي، الأعمى. وُلد سنة ٦٩٨ هـ، وقرأ القرآن والنحو على محمد بن يعيش، والفقه على محمد بن سعيد الرندي، والحديث على أبي عبدالله الزواوي، ثم رحل إلى الديار المصرية صحبة زميله أبي جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي، ونظم (الحلة السِّيَرا، في مدح خير الورى)، وهي قصيدة ميمية بديعية، ثم رجع إلى دمشق ثم حلب، وكان كثير النظم، عالماً بالعربية، ومات سنة ٧٨٠ بألبيرة[2].

٥ ـ محمد بن محمد بن محمد، الشهير بابن نُباتة، الفارقي، ثم المصـري، ولد سنـة ٦٧٦ هـ، وتعاطى الآداب، فمهـر في النظم والنثر، ورحل إلى الشام سنة ٧١٦ هـ، وله في المؤيَّد (صاحب حماة) وفي ولده مدائح ومراثٍ.

ومن مؤلفاته: (القطر النباتي)، وهـو في مقاطـع من شعره، و(سوق الرقيق)، وهو مجموعة قصائد غزلية، و(مطلع الفوائد)، في الأدب، و(الفاضل من إنشاء الفاضل)، و(زهر المنثور)، و(شرح رسالة ابن زيدون)، وغيرها من المؤلفات، واستدعاه الناصر حسن

(١) الدرر الكامنة ٢: ٦٦.
(٢) الدرر الكامنة ٣: ٣٣٩.

إلى مصر سنة ٧٦١ وقرر له مرتباً، مات في سابع صفر سنة ٧٦٨ عن ٧٢ سنة[١].

٦ ـ محمد بن يعقوب بن عبد الكريم بن أبي المعالي، الحلبي، ثم الدمشقي، ناصر الدين، ابن الصاحب شرف الدين. ولد سنة بضع وسبعمائة، وقرأ على ابن إمام المشهد، وابن خطيب جبرين، والأثير الأبهري، وولي كتابة الإنشاء بحلب، ثم كتابة السرّ بها ثم بدمشق، وكان مقرّباً من حكام عصره، ذا ثروة كبيرة، قال ابن كثير: كانت فيه نباهة وممارسة للعلم، وإحسان وجودة طباع، مات في سادس ذي القعدة سنة ٧٦٣ بدمشق[٢].

٧ ـ أحمد بن يوسف بن مالك، الرُّعَيْني، الغرناطي، أبو جعفر، رفيق محمد بن جابر الأعمى (السابق). كان شاعراً، عارفاً بفنون الأدب، واستوطن مع رفيقه ألبيرة من أعمال حلب، وشرح بديعية رفيقه الميمية التي أشرنا إليها قريباً، وأجاز لأبي حامد بن ظهيرة. وُلد بعد السبعمائة، ومات في منتصف رمضان سنة ٧٧٩ هـ، ومن شعره:

لا تعاد الناس في أوطانهمْ
قلما يُرْعَى غريبُ الوطنِ
وإذا ما عشت عيشاً بينهمْ
خالقِ الناس بخلْقٍ حسنِ[٣]

(١) المرجع السابق ٤: ٢١٦.
(٢) المرجع السابق ٤: ٢٨٧.
(٣) شذرات الذهب ٦: ٢٦٠.

٨ ـ عمر بن إسحاق بن أحمد، الغزنوي، الهندي، سراج الدين، قاضي الحنفية بالقاهرة، تفقه على الوجيه الرازي بمدينة (دلي) بالهند، والسراج الثقفي، والركن اليداوي، وغيرهم من علماء الهند، وحج فسمع بمكة، وقدم القاهرة نحو سنة ٧٤٠ فسمع بها، وظهرت فضائله، ثم ولي قضاء العسكر بعد أن كان ينوب عن الجمال التركماني، ثم عُزِل. ثم قويت شوكتُه لما مات علاء الدين التركماني، فاستبد بجميع الأمور، وعظمت منزلته عند السلطان حسن. ومن تصانيفه: (شرح المغني)، و(شرح الهداية)، و(شرح بديع ابن الساعاتي) و(شرح تائية ابن الفارض). قال ابن حجر: كان واسع العلم، كثير الإقدام والمهابة، متعصباً للصوفية الاتحادية، وهو الذي عزّرَ ابن أبي حجلة لكلامه في ابن الفارض.

وهو من مواليد سنة ٧٠٤ هـ، كما أنه مات سنة ٧٧٣ في شهر رجب[١].

٩ ـ أحمد بن يحيى بن أبي بكر، التلمساني، أبو العباس، شهاب الدين، المعروف بابن أبي حجلة، وُلد بتلمسان سنة ٧٢٥ هـ، وفيها نشأ وتعلم، ثم قدم إلى الحج فلم يرجع، ومهر في الأدب نثراً وشعراً، وله عدة مقامات. كان شديد المحاربة للصوفية الاتحادية، وبخاصة شاعرهم ابن الفارض. وترك عدة مؤلفات منها: (ديوان الصبابة)، و(منطق الطير)، و(السجع الجليل، فيما جرى من النيل)، و(النعمة الشاملة، في العشرة الكاملة)، ومات في مستهل ذي الحجة سنة ٧٧٦، عن ٥١ عاماً، وهو القائل:

---

(١) المرجع السابق ٦: ٢٢٨.

نـظمـي عــلا وأصــبــحــت
ألــفــاظــه مــنــمّــقــه
فــكـــل بــيــت قــلـتــه
في سـطـح داري طـبـقـه[1]

١٠ ـ محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي الحسن الزمردي ابن الصائغ، شمس الدين، الحنفي، وهو من تلاميذه[2].

١١ ـ محمـد بن يـوسف بن عـلي الكـرمـاني، الشـافعي، شمس الدين، نزيل بغداد. وُلد في سادس عشر جمادى الآخرة سنة ٧١٧ هـ، واشتغل بالعلم، فأخذ عن والده، ثم لازم القاضي عضد الدين اثنتي عشرة سنة، وارتحل في طلب العلم، فدخل مصر والشام والحجاز والعراق. ثم استوطن بغداد، وتصدى لنشر العلم بها نحو ثلاثين عاماً. وسمع منه جماعة منهم: القاضي محب الدين البغدادي، وولده تقي الدين يحيى الكرماني.

من أشهر تصانيفه شرحه على البخاري، كتبه بالطائف وهو مجاور بمكة، وأكمله ببغداد، سماه (الكواكب الدراري على صحيح البخاري)، وله أيضاً: (ضمائر القرآن) وغيرهما. ومات سنة ٧٨٦ بروض مهنّا، وهو راجع من مكة، فنُقل إلى بغداد ودُفن بها[3].

١٢ ـ عبـدالله بـن عبـد الـرحمـن بـن عبـدالله بـن حمد بن محمد بن عَقيل، القرشي، الهاشمي، العَقيلي، الشافعي، بهاء

---

(١) المرجع السابق ٦: ٢٤٠.
(٢) انظر ترجمته في تلاميذه (ت ٧).
(٣) المرجع السابق ٦: ٢٩٤ والدرر الكامنة ٤: ٣١٠.

الدين، نحوي الديار المصرية، وُلد سنة ٦٩٨ هـ، أخذ القراءات على التقي الصائغ، والفقه على الزين الكتّاني، ولازم العلاء القونوي، والجلال القَزويني، وأبا حيان، وصار إماماً في العربية والبيان، وتولى القضاء في مصر.

من تصانيفه: (الجامع النفيس) في الفقه، و(مختصر الشرح الكبير). وممن قرأ عليه سراج الدين البلقيني. ومات بالقاهرة ليلة الأربعاء ثالث عشر ربيع الأول سنة ٧٦٩.

ومن شعره:

قسماً بما أوليتمُ من فضلكمْ
للعبد عند قوارع الأيام
ما غاض ماءُ وداده وثنائه
بل ضاعفتْه سحائب الإنعام[١]

١٣ - إبراهيم بن عبدالله بن محمد القيراطي، برهان الدين، وُلد بمصر في صفر سنة ٧٢٦ هـ، وسمع على السَّديد الإِرْبلي، وابن السراج، وأحمد بن علي الشتولي، وابن شاهد الجيش، وغيرهم من فقهاء عصره. ومهر في الآداب، وله شعر كثير جمعه في ديوان. جاور بمكة، وكتب عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها، ومات بها في شهر ربيع الآخر سنة ٧٨١ هـ. وممن أخذ عنه كذلك: أبو الفضل العراقي، وبدر الدين البشتكي، وجمال الدين بن ظهيرة، وولي الدين أبو زرعة، وشمس الدين بن الجزري، وآخرون[٢].

---

(١) بغية الوعاة ٢: ٤٧.

(٢) الدرر الكامنة ١: ٣١.

١٤ ـ أحمد بن الحسن بن عبدالله، المقدسي، الحنبلي، شرف الدين، ابن قاضي الجبل. وُلد في شعبان سنة ٦٩٣ هـ، وسمع من كثيرين، منهم: محمد بن علي الواسطي، والتقي سليمان، وإسماعيل بن عبد الرحمن الفراء. وأجاز له ابن عساكر، وابن القوّاس، وغيرهما، وكان بارعاً في العلوم، بعيد الصيت، صاحب نوادر وخط حسن، ومات سنة ٧٧١ هـ، من تصانيفه: (القصد المفيد في حكم التوكيد)، و (مسألة رفع اليدين)، وله نظم ونثر[١].

١٥ ـ عمر بن رسلان بن نُصير بن صالح، الكناني، العسقلاني الأصل، ثم البُلْقيني، المصري، الشافعي، أبو حفص، سراج الدين، من المحدثين الحفاظ، وُلد في بُلْقِينة من غربية مصر سنة ٧٢٤ هـ، وتعلم بالقاهرة، وولي قضاء الشام سنة ٧٦٩، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٥، من كتبه: (التدريب) في فقه الشافعية، و (محاسن الاصطلاح) في الحديث، و (الأجوبة المرضية عن المسائل المكية)، وغيرها[٢].

١٦ ـ الإمام شيخ القراء أسد بن محمد الشيرازي الملقب جلال، وكان من تلاميذه[٣].

١٧ ـ محمد بن عبد الرحمن بن محمد، شمس الدين، السخاوي، عالم بالحديث والتفسير والأدب والتاريخ، أصله من (سخا) إحدى قرى مصر، ولد بالقاهرة سنة ٨٣١ هـ، وتوفي بالمدينة سنة ٩٠٢، ارتحل في طلب العلم كثيراً، وصنف زُهاء مائتي كتاب، أشهرها: (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع)، وهو اثنا عشر

---

(١) المرجع السابق ١: ١٢٠.
(٢) الاعلام ٥: ٤٦.
(٣) انظر ترجمته في تلاميذه (ت ٦).

جزءاً، و(التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة)، و(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)، و(الاهتمام) في ترجمة النووي، و(المقاصد الحسنة) في الحديث، و(القول التام في فضل الرمي بالسهام)، و(التاريخ المحيط)[1]، و(طبقات المالكية)، وغيرها كثير[2].

مخطوطة المقامة:

أصل المخطوطة من المكتبة الظاهرية، ضمن مجموع تاريخي متصل بالمدينة المنورة، صوره لي أستاذنا الدكتور شكري فيصل ـ رحمه الله ـ مصادفة، فهيأ بذلك لهذه المقامة أن ترى النور بعون الله على يدي، وتظهر مرة أخرى إلى الوجود، بعد أن ظلت حبيسة طوال هذه القرون، ورب مصادفة خير من ميعاد.

وهي مكتوبة بخط عادي متداخل الحروف، في اثنتين وعشرين صفحة، تتراوح أسطرها بين ١٩ ـ ٢١ سطراً، بمقاس ١١ × ٢٠، ولا يوجد بها اسم كاتبها، غير أن من محامده أنه كان يضع في الغالب نقطة عند نهاية كل جملة أو فاصلة، وذلك بلا شك يشهد له بالدقة، ولكنه في جانب آخر يكتب الأبيات الشعرية ضمن النثر وكأنها جزء منه، وذلك عيب يعد عليه.

ولا يوجد في النسخة أيضاً ما يدل على تاريخ كتابتها، وليس عليها تملكات تساعد الباحث عادة على تحديده، غير أنه يوجد على صفحة العنوان الجملة الآتية: (والمصنِّف كان ناظراً في أمر الحسبة

---

(١) سمى هذا الكتاب في (التحفة اللطيفة) حين ترجم للزرندي: (التاريخ الكبير)، وقال: إنه ضمنه تقريظات من قرّظوا مقامة (المرور بين العلمين) للزرندي.

(٢) الأعلام ٦: ١٩٤.

الشريفة بالمدينة المنورة، وخادم السنة والحديث بالحجاز الشريف في عام ٧٤٨)، وهي بخط مغاير مكتوب في القرون الأخيرة، وذلك لوجود كلمة (المنورة) فيها، وهي صفة للمدينة لم نعثر عليها فيما تحت يدنا من مراجع تعرضت لها أو ترجمت لبعض رجالها، حتى آخر القرن العاشر الهجري.

عملي في التحقيق:

١ ـ بما أنني لم أعثر على نسخة أخرى للمقامة رغم سعيي الحثيث المتواصل، فإنني قد وجدت صعوبة في تحقيقها، ذللتها بالاعتماد على المراجع تارة، وبالاعتماد على السياق تارة أخرى. وأحسب أنني قد وصلت بالنص إلى صورته الصحيحة، أو إلى أقرب ما يمكن أن يكون من ذلك والحمد لله.

٢ ـ عزوت الآيات والأحاديث والأشعار.

٣ ـ شرحت الكلمات اللغوية الصعبة، وحددت مواقع الأعلام التي شعرت أنها في حاجة إلى تحديد.

٤ ـ عزوت الأمثال التي تضمنها النص، وبينت مواردها ومضاربها.

٥ ـ كتبت بعد ذلك مقدمة للتحقيق، شملت الحديث عن نسب المؤلف، وأعلام أسرته، وحياته (مع ذكر أمراء المدينة الذين عاصرهم)، وشيوخه، وتلاميذه. كما تضمنت الحديث عن المقامة موضوع التحقيق (مع توطئة بالحديث عن فن المقامة)، وعمن قرظها من الأدباء والعلماء، ثم وصفت المخطوطة وبينت عملي فيها. وفي اعتقادي أن هذه المقدمة ضرورية، متممة لعملية التحقيق.

وبعد:

فكل ما أتمناه أن يكون عملي خالصاً لوجه الله تعالى، وقربة أتقرب بها إليه في خدمة بلد رسول الله ﷺ، بإظهار إسهاماته العلمية والأدبية، وإضاءة الجوانب المعتمة من تاريخه الطويل.

وصلى الله على سيدي وحبيبي محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

د. محمد العيد الخطراوي



المرور بين العلمين
في
مفاخرة الحرمين

تأليف

الشيخ نور الدين علي بن محمد الزرندي
المدني ـ الحنفي

تقديم وتحقيق

الدكتور محمد العيد الخطراوي



٩١

كتاب المرور بين

العلمين في مفاخر الحرمين

للشيخ العلامة الحبر الفهامة

نور الدين علي المحلي الزبيدي

نفعنا الله به الحنفي

لطف الله به ووالديه

أجمعين آمين

والحمد لله

رب

العالمين

بلديه

م

والمصنف كان ناظراً في أمر الحسبة الشريفة بالمدينة المنورة وخادم السنة والحديث بالحجاز الشريف في عام ٨٤٧ سنة

بسم الله الرحمن الرحيم من طريف محاضرة

وظريف المذاكرة ما حكي من مناظرة الحرمين ومنا

ظرة المحلين المعظمين ذكر انهما اجتمعا في ميدان

الفخر ومن دونهما حجاب وليس بينهما الغير كما في

هذا المقام على مشبة نجابا فبرزت المدينة الشريفة

وتمشت في اثواب الشرف بمالة واستفتحت المقال وقالت

الحمد لله الذي فضلني على سائر البلاد وجعلني بين

طرفي الفضل والسيادة وشرفني بحلول خير العباد

واشرف كل حاضر وباد والبسني ملابس الفخر الفاخرة

واعلا مقامي في الدنيا والآخرة وجعل تربتي شفاء

الاسقام وعلاجا لذوي الآلام فلي الشرف على كل اقليم

والفضل في الحديث والقديم وبايمن تربته كل حضرت وعرف

تربتي اطيب من كل طيب لا تخيب المساكن التي حلت ربا

هيهات اين مسك من رياها فانما هي من مكان جنة

اذ كانت في روضة من رياض الجنة وحسبي فخرا المنزلة

على مراتبه وحاز جميع الشرف رافعة فانت مكة

تنال الحالة من كل فريضة وفلاة واملا ذو تماثله بأي

صلاة ولي السنا الباهر والعلا الذي تحوا عن خجل راجح

فلا برحت سنت في هذا المضمار وحثت في ميدان

الفخر فاحتج بان كان العلات فلما سمع الحرم المكي

كلامه

من المعاني قوله كلا الله نعم بلي لا اشارة قال كانك تقول لست
اياك اعني واسمعي يا جارة ايها المدينة المسكينة عليك بالكتابة
ابي تمتنين ام لي تشتمين ام على تشترين ام مع
وجودي تحتجين يا الله ما سال اليك الا ما فاتي مني
ولا وصلك الا ما فضل عني اما علمت ان بيتي احفظ البيتان
اما سمعت قوله تعالى فيه آيات بينات الا ترى مثال الكعبة
ذات السترة او البيت المقابل بالبيت المعمور الذي هو عين
الوجود ومطلع السعود افي صفاتك كما اعتمادا ام في
تنبيهك كالشعر ام هاهنا مقام انت مكان مقام ابراهيم
وهل يحاذي مياهك بمنازل الصفا في زمزم او تحت
عمر الكيميا السعادة وتعرف بالحجر الاكرم الذي هو
كالنقطة السوداء في البيت او كالمشكاة فيها من الجنة نزلت
فاربعي على نفسك واياك ان ترتفعي على ابناء جنسك
فان كانت الصلاة في مسجدك بالف فهي في
مسجدي بمائة الف وحول بيتي من الملائكة ٢ الطائفين
والمصلين كم من وصف فان تفخرين بطول
الشفع ففي كان مسيطر اسمه الرفيع شفيع
بلادها تنطق على تمامها ولولا رمس حاكم ساد
فاني ليست بمثل الغنى فيها دوام الخير والمنبع بما احرزه
كلا انتن توفى تمنت فلما سمعت المدينة هذه المقالة

وشيمه الكريمة وعواطفه الرحيمة وفات كما واهتم بهما
في مبانيه والتمام ان شاء الله تعالى بالامر
الذي عناك بهاتيك فلنفرح بذلك ملك الشكر وبعد
فنرتب سوم الشريف باجابة سؤالهما والنظر في احوالهما
فعملنا الامر بين يديك واشتغلنا بالدعاء المتواتر عليه
وابتهلنا الى الله تعالى في دوام ايام هذه الدولة القاهرة
وان يجعل نشر علم الاسلام الطاهرة الظاهرة ثم جدد لهما
التشريف بالانعام والتوقيع الشريف بما سالاه على الدوام
كل عام وازال ما كان بينهما من الخصام والسلام

قال المؤلف رحمه الله تعالى هذا اخر
ما اوردناه وتمام الكلام الذي فصلناه واوردناه
ونسال الله ان يوفقنا للسداد في القول والعمل
ويبعدنا من الضلال والزيغ والزلل
ويعصمنا من الحركات والسكنات
في الخطأ والخطل
امين وصلى
الله تعالى على
سيدنا محمد
واله وصحبه
وسلم
م

بسم الله الرحمن الرحيم

من طريف المحاضرة، وظريف المذاكرة، ما حُكي من مناظرة الحرمين، ومناضلة المحلين المعظمين، ذُكر أنهما اجتمعا في ميدان الفخر ومن دونهما حجاز، وليس معهما كغيرهما في هذا المقام على الحقيقة مجاز، فبرز حرم المدينة الشريفة وتسنم شرفاً من الشرف عال[1]، واستفتح المقال وقال:

الحمد لله الذي فضلني على سائر البلاد، وجمع لي بين طريف الفضل والتلاد، وشرّفني بحلول خير العباد، وأشرف كلِّ حاضر وباد، وألبسني ملابس الفخر الفاخرة، وأعلى مقامي في الدنيا والآخرة، وجعل تربتي شفاء من السقام[2]، وغباري دواء من

---

(١) عال: الناحية الإعرابية تقتضي (عالياً)، لأنه صفة (شرفاً)وهو منصوب، لكنه أتى به هكذا لمراعاة الفاصلة.

(٢) يشير إلى حديث عائشة الذي جاء في الصحيحين، قالت: كان النبي ﷺ يقول في الرقية: «بسم الله، تربةُ أرضنا، وريقة بعضنا، يشفي سقيمنا، بإذن ربنا».. رواه البخاري في كتاب الطب (باب رقية النبي ﷺ) رقم ٥٧٤٥، ٥٧٤٦ ورواه مسلم في كتاب السلام (باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة) رقم ٢١٩٤ وأوله: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا ـ ووضع سفيانُ (أي راوي =

الجذام[1]، فلي الشرف على كل إقليم، والفضل في الحديث والقديم، وباسمي ينوِّه كل خطيب، وعَرْف تربتي أطيب من كل طيب:

لا تحسب المسك الذكيّ كتُربها
هيهات أين المسك من ريّاها.؟[2]

فالمُقام بي من المكاره جُنة، إذ كنت في رياض من رياض الجنة[3]، وحسبي فخراً المنبر الذي علت مراقيه، وحاز جميع الشرف براقيه، فإلى مسجدي تشدّ الرحال[4] من كل قرية وفلاة، والصلاة

= الحديث) سبّابته بالأرض ثم رفعها - (بسم الله... الحديث) قال ابن حجر (الفتح ١٠ : ٢٠٨): قال النووي: قيل: المراد بأرضنا: المدينة خاصة لبركتها. وببعضنا: رسول الله ﷺ، لشرف ريقه، فيكون ذلك مخصوصاً.

(١) ذكره السيوطي في (الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة) ص ٥٨ نقلاً عن (أخبار المدينة) للزبيربن بكار، ونصه: (وقال: حدثني محمد بن حسن، عن إبراهيم، قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «غبار المدينة يطفىء الجذام» وحدثني محمد، عن محمد بن فَضّالة، عن محمد بن موسى بن صالح - من ولد صيفي بن أبي عامر - عن جده، قال: أقبل رسول الله ﷺ من غزاة غزاها، فلما دخل المدينة أمسك بعضُ أصحابه على أنفه من ترابها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن تربتها لمؤمنة، وإنها لشفاء من الجذام».
قلت: وبغضّ النظر عن مرتبة هذين الحديثين، فإن حديث عائشة السابق الوارد في الصحيحين يشمل الجذام وغيره، والله أعلم.

(٢) قائله هو أبو محمد بن عبدالله بن عمر بن موسى البسكري المغربي المتوفى بالمدينة سنة ٧١٣ هـ، وذلك من قصيدة له في مدح الروضة الشريفة والحنين إليها. (انظر وفاء الوفاء ٤ : ١٤١٩، والدرر الكامنة ٢ : ٢٨٠).

(٣) في الأصل: (إذا كانت).

(٤) يشير إلى الحديث المتفق عليه: «لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدِ الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا» رواه البخاري في كتاب الصوم (باب صوم يوم النحر) رقم ١٩٩٥ رواه مسلم في كتاب الحج (باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره) رقم ٨٢٧.

فيه كما قد عُلم بألف صلاة[1]، فلي السناء الباذخ، والعلاء الذي هو بأرض المجد راسخ، فلا غرو إن سبقت في هذا المضمار، وركضت في ميدان الفخار، فأحق الخيل بالركض المِعَار[2].

فلما سمع الحرم المكي هذه العبارة، وفهم دلالة نصها والإشارة، قال: كأنك تقولين: إياك أعني واسمعي يا جارة[3].

أيتها المدينة المسكينة[4]، عليك بالسكينة. أبي تُعرِّضين؟. أم لي تتعرَّضين؟. أم عليّ تستظهرين.؟ أم مع وجودي تفتخرين.؟ تالله ما سال إليك إلاَّ ما فاض مني، ولا وصلك إلاَّ ما فضل عني. أما علمت أن بَنيّتي أعظم البنِيّات.؟ أما سمعت قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾[5].؟ ألكِ مثل الكعبة ذات الستور.؟ أو البيت المقابل للبيت

---

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة الوارد في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «صلاةٌ في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاَّ المسجدَ الحرام».. رواه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) رقم ١١٩٠، ورواه مسلم في كتاب الحج (باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة) رقم ١٣٩٤.

(٢) هذا عجز بيت لبشر بن أبي خازم، وتمامه:

وجدنا في كتاب بني تميم: أحقُّ الخيل بالركض المِعَارُ

والمِعار ـ بكسر الميم ـ: الفرس الذي يحيد عن الطريق براكبه. قال أبو عبيدة: والناس يروونه المُعار، من العارية، وهو خطأ. (القاموس المحيط ـ مادة: العَيْر).

(٣) (إياك أعني واسمعي يا جارة): هذا مثل يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره، وأول من قاله سهل بن مالك الفزاري في شعر له. (مجمع الأمثال للميداني ١ : ٤٩).

(٤) المسكينة: من أسماء المدينة.

(٥) سورة آل عمران: ٩٧.

المعمور[1]. ؟ الذي هو عين الوجود، ومطلع السعود، أفي صفاتك كالصفا[2]. ؟ أم في نعيمك كالتنعيم[3]. ؟ أم هل مقام لك مكان مقام إبراهيم. ؟ وهل حدا حادي مياهك بمثل المصافي[4] وزمزم. ؟ أو تحققت بعلم الكيميا السعادة [5] وظفرت بالحجر المكرّم، الذي هو كالمقلة السوداء في البيت، أو كمشكاة فيها من الجنة زيت، فاربَعي على نفسك، وإياك أن ترفعي على أبناء جنسك. ! فإن كانت الصلاة في مسجدك بألف، فهي في مسجدي بمائة ألف[6]، وحول بيتي من الملائكة الطائفين والمصلين كم من صف[7]، وإن فخرت بحلول

---

(١) البيت المعمور: أقسم الله به في سورة الطُّور، قال القرطبي (١٧ : ٥٩): قال علي وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيال الكعبة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه.

(٢) الصفا: معروفة، مقابل المروة.

(٣) التنعيم: موضع يبعد عن المسجد الحرام أربعة أميال تقريباً، في الطريق إلى المدينة المنورة، وقد اتصل به عمران مكة الآن، وهو ميقات من يريد العمرة من مكة.

(٤) المصافي: جمع مصفاة، وهي عبارة عن أحواض ومواجل داخلية في مجرى عين زبيدة لتصفية مياهها وترويقها.

(٥) في الأصل: (أو تحققت علم الكيميا السعاد. . إلخ).

(٦) يشير إلى حديث ابن ماجه عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلاّ المسجدَ الحرام. وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مائة ألف صلاة فيما سواه». . رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة (باب ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ) رقم ١٤٠٦ وقال في الزوائد: إسناد حديث جابر صحيح ورجاله ثقات. وقال في الفتح (٣: ٦٧): وروى البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء: «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة». . قال البزار: إسناده حسن.

(٧) لعله يشير إلى ما أخرجه الأزرقي في (أخبار مكة ١ : ٣٥) عن ابن عباس، أن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار، =

الشفيع، ففيّ كان مسقط رأسه الرفيع:

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي
وأول أرض مس جلدي ترابُها[1]

فأقلي من هذا الفخر فربما ذُمَّ الفخور، والمتشبِّع بما لم يؤت كلابس ثوبي زور[2].

فلما سمعت المدينة هذه المقالة اشتعلت ولا اشتعال الذُّبالة، وبرزت بين أنصارها وأعدائها كالبدر وسط الهالة، وقالت: يالله العجب، من دفع الحق وقد وجب، قول ولا معنى، أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنا[3]، ما هذا العقل الذي أتيتِ.؟ لقد وقعت فيما أبيتِ، وارتكبت ما عنه نهيتِ:

لا تنهَ عن خلق وتأتيَ مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم[4]

ويك.! ارفعي ذيل إعجابك، وخففي فقد آدَتْك بعض

= فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين.؟» قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها.

(١) قائله هو رقاع بن قيس الأسدي. (لسان العرب ـ مادة نوط).

(٢) يشير إلى حديث عائشة الذي رواه أحمد (٦ : ٩٠) أن رسول الله ﷺ قال: «من أُتي إليه معروف فليكافىء به، ومن لم يستطع فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن تشبَّع بما لم ينل فهو كلابس ثوبي زور».

(٣) هذا مثل يضرب لمن يعد ولا يفي، والطِّحْن بمعنى مطحون، فهو فِعْل بمعنى مفعول. (مجمع الأمثال ١ : ١٦٠).

(٤) قائله هو أبو الأسود الدؤلي. (حماسة البحتري ١٧٤).

أثوابك، هيهات!. أين النجم من البدر، والقطر من البحر، ولكن اليوم خمر، وغداً أمر[1].

فإن كان فيك مقام الخليل، فعندي المقام الجليل، وإن كانت كعبتك بثينة الحسن، فحالي كله جميل، وإن فخرت بالبيت المقابل للبيت المعمور، فكل بيت من بيوتي بنور الحبيب معمور، وإن أتيتِ بالصفا، أتيت بالنبي المصطفى. وإن جئت بالتنعيم، جئت بروضة من جنات النعيم[2]. وإن نظرت إلي من عين البيت وزمزم بالمقلة السوداء[3]، قابلتك بالقبة الخضراء[4]، ونهرتك من بيت مال فخاري

---

(١) هذا مثل معناه: اليوم خفض ودَعةٌ، وغدا جدّ واجتهاد، ويضرب في تقلب الأيام. وقائله هو امرؤ القيس الشاعر حين بلغه موت أبيه. (مجمع الأمثال ٢: ٤١٧).

(٢) يشير إلى حديث أبي هريرة الوارد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي». رواه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (باب فضل ما بين القبر والمنبر) رقم ١١٩٦ ورواه مسلم في كتاب الحج (باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة) رقم ١٣٩١.

(٣) يقصد الحجر الأسود.

(٤) لم تكن توجد في أول الأمر على الحجرة الشريفة قبة، بل كان عليها بناء من الآجرّ مرتفع بمقدار نصف قامة، تمييزاً لها عن بقية سطح المسجد، ثم صنعت لها قبة خشبية على أيام المنصور قلاوون الصالحي، وذلك في سنة ٦٧٨ هـ، وقد جدِّدت هذه القبة في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، الذي عاصره الزرندي صاحب هذه المقامة، ثم في أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد سنة ٧٦٥ ثم احترقت في الحريق الثاني للمسجد، فصنعوا لها قبة بيضاء من الجص على دعائم بأرض المسجد وعقود من الآجرّ.
ثم إن القبة المذكورة تشققت من أعاليها، ولم ينفع الترميم فيها، فهدم أعاليها الشجاعي شاهين الجمالي بأمر السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٩٢ وأعاد بناءها =

بالبيضاء والصفراء[1]، ونظرت إليك من عيوني بالعين الزرقاء[2].
وإن كان بيتك عين الوجود وظفر بالحجر المكرّم، ومثله لا يضاهى ولا يباهَى، فعندي:

إنســان عـين الكــون، ســرٌّ كمــالــه
يس، إكســير المـحــامــد، طــه[3]

وأمـا ما ذكـرت من تضعيف صـلاتـك وتكثـير صِـلاتـك، فالتضعيف يحتاج إلى طبيب حاذق فإنَّه ضعيف، ولم يسلم سنده ولا متنه بأسنّة ألسنة[4] النقاد من الطعن والتجريح. وأما حديث فضل مسجدي فشائع سائغ للشاربين منه المحض والصريح. وإن كـان حولك من الملائكة صفوف، ففيّ من صفوف الملائكة ألوف. أوَ ما بلغك أنه ينزل في كل يوم وليلة بعد صلاة الفجر والعصر، على الضـريح الشـريف سبعـون ألف ملك ثم لا يعـودون إليـه آخـر الدهر[5]. وأما ما ذكرت من أن فيك مولد النبي المعظم، وبك كان

= وصبغها باللون الأزرق فصارت تعرف بالقبة الزرقاء، ولم ينته القرن التاسع حتى غـيِّر لونها إلى اللون الأخضـر، فعُرفت بـالقبة الخضـراء. (وفاء الـوفـاء) ٢: ٦٠٨ - ٦٤٧) ولكن الزرندي توفي سنة ٧٧٢ هـ، فكلمة (خضراء) من تغيير الناسخ.

(١) البيضاء والصفراء: الفضة والذهب.

(٢) العين الزرقاء: أجراها إلى المدينة من قباء، مروان بن الحكم أيام إمارته في عهد معاوية، وقد كان مروان ذا عينين زرقاوين، فسميت به.

(٣) قائله هو أبو محمد البسكري (وفاء الوفاء ٤ : ١٤٢١).

(٤) في الأصل: (بأسنَّة الأسنة) وانظر تعليق (٦) ص (٩٤) ووفاء الوفاء ٢ : ٤١٨ وما بعدها.

(٥) قال السمهودي في (وفاء الوفاء ٢ : ٥٥٩): وروى يحيى وابن النجار عن كعب الأحبار قال: ما من فجر يطلع إلاَّ نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفّوا بالقبر، =

مسقط رأسه الرفيع المكرَّم، فصدقت، ولكن ولدتِه وربيتُه، وأخرجتِه وآويتُه، وخذلته ونصرتُه، وعققتِه وبَررتُه، وكان بطني وعاءه، وحِجْري فِناءه، وكنت له أمّاً شفيقة، وبه ـ ولله الحمد ـ رفيقة، وذلك ـ كما قيل ـ بجَدِّي لا بكدِّي[1]، وبتوفيق الله كان سعدي، فدعي المكابرة، وأنصفي عند البحث والمناظرة، وإياك أن تأتي هذه الخُطة، فتقعي معي في ورطة. !

فحين قرع سمع مكة هذا الكلام، وفزعت بما أُلقي إليها من الملام، قامت وقعدت، وبرقت ورعدت، وسفرت عن وجهها فضل نقابها، وكشفتْ ما كانت سدلت من حجابها، ودخلت إلى ميادين المفاخرة من بابها، ونطقت بما فيها، وأظهرت السرائر التي كانت تخفيها، وقالت: واعجبا. ! كيف جسرت على الآساد في آجامها الأرانب. ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب[2]. ولقد زاحمت الحملانُ

= يضربون بأجنحتهم، ويصلون على النبي ﷺ، حتى إذا أمسوا عرجوا، وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة ﷺ.
وفي صحيح الدارمي نحوه من رواية عائشة رضي الله عنها، وقال فيه: سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار. ذكره في (باب ما أكرم الله به نبيه ﷺ. بعد موته، رواه البيهقي في (شعب الإيمان). اهـ.

(١) يشير إلى المثل (اسع بجدِّك لا بكدّك)، وأول من قال ذلك حاتم بن عميرة الهمْداني. (مجمع الأمثال ١: ٣٤٠).

(٢) هذا عجز بيت مشهور، قيل: إنه لغاوي بن ظالم السلمي. وقيل: لعباس بن مرداس السلمي. وقيل: لأبي ذر الغفاري، وتمامه:

أربّ يبول الثعلبان برأسه
لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

(لسان العرب ـ مادة ثعلب)

القرَّحَ في المرعى، واستنت الفصال حتى القَرعى[1]، يا صفراء ويا بيضاء، غرِّي غيري[2]، ويحك.! تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها[3]، فبالله إلاَّ ما نهنهتِ من كلامك، وتنبهت من منامك، فما هلك امرؤ عرف قدره، ولم يتعدَّ طوره[4]. ألستُ أم القرى.؟ أليس أنه أقام بي ثلاثاً وخمسين سنة سيدُ الورى، وأنه أقام بك عَشْراً أو دون العَشْر، وإن لم يكن ذلك العُشر فهو قريب من العُشر. ألست أول بيت وُضع للناس[5].؟ أليس أن الخليل والذبيح رفعا مني البناء ووضعا الأساس[6].؟ وهات خبريني، أفي كل يوم وليلة ينزل عليك كل يوم

(١) هذا مثل يضرب للذي يتكلم مع من لا ينبغي أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره. والقَرْعَى: جمع قريع، كمرضى ومريض، وهو الذي به قَرَع، وهو بثْر أبيض يخرج بالفصال. (مجمع الأمثال ١: ٣٣٣).

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢: ٥١٨): من قول علي رضي الله عنه، وروى أحمد وغيره من الأئمة في مناقبه: أن علياً رضي الله عنه، جاءه ابن التيَّاح فقال: (يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء). فقال: (الله أكبر). وقام متوكئاً على ابن التياح حتى قام على بيت المال، وأمر فنودي في الناس، فأعطى ما في بيت المال للمسلمين، وهو يقول: (يا صفراء، يا بيضاء، غرِّي غيري، هاءَ وهاء). حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلَّى فيه ركعتين، وله طرق أخرى عند أحمد أيضاً.

(٣) هذا مثل يضرب في صيانة المرء نفسه من خسيس مكاسب الأموال، ومعنى (لا تأكل بثدييها): لا تؤجرهما للإرضاع لتعيش بسبب ما يغلاَّنه عليها. وأول من قال ذلك: الحارث بن سليل الأسدي. (مجمع الأمثال ١: ١٢٢).

(٤) (فما هلك امرؤ.. إلخ) مثل، أول من قاله أكثم بن صيفي في وصية كتب بها إلى طيء. (مجمع الأمثال ٢: ١٨٢).

(٥) قال تعالى في سورة آل عمران، آية ٩٦: ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذين ببكّة مباركاً وهدى للعالمين﴾.

(٦) قال تعالى في سورة البقرة، آية ١٢٧: ﴿وإذ يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيلُ﴾.

مائة وعشرون رحمة[1].؟ أم في كل ساعة تتوارد عليك نعمة إثر نعمة.؟ أم فيك الأماكن التي الدعاء فيها متحقق الإجابة.؟ أم فيك مثل ذاك الحرم الرحب الذي حفته السعادة وملأت البركة رحابه.؟ أم لك كالميزاب[2] الذي تصب الرحمة منه صبّا، ويغدو المشتاق إليه مغرماً ويروح صبّاً.؟ أفي أوديتك كوادي إبراهيم، الذي يجري بالخير العميم، ويأتي بالبر الجسيم.؟ ألك كالأبطح والبطحاء[3].؟ أم في سائمة أنعام جبالك كثوْر وحراء[4].؟ أم في ثنايا ثغورك ككُدىً

---

(١) ونصه: «يُنزل الله عزّ وجل على هذا البيت كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة، ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين». قال العجلوني في كشف الخفاء (٢: ٥٣٣): رواه الطبراني في معاجمه، والأزرقي، وآخرون كالبيهقي والحارث في مسنده، وحسّنه المنذري والعراقي، وقد أملى فيه السخاوي بمكة جزءاً.

(٢) أول من وضع ميزاباً للكعبة قريش حين بنتها سنة ٣٥ من ولادته ﷺ، وتوارد عليه التغيير بعد ذلك، والموجود الآن من عمل السلطان عبد المجيد خان سنة ١٢٧٦ هـ وقد روى الأزرقي عن جده قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن عطاء أنه قال: «من قام تحت ميزاب الكعبة فدعا، استُجيب له، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وهو حديث موقوف ذو سند جيد. وهو على كل حال داخل في كل فضل ثبت للكعبة المشرفة وما حولها.

(٣) الأبطح: قال ابن الأثير في النهاية (١: ١٣٤): أبطح مكة: هو مسيل واديها، ويجمع على البِطاح، والأباطح، ومنه قيل: قريش البطاح، وهم الذين كانوا ينزلون أباطح مكة وبطحاءها.

(٤) ثوْر: هو جبل في جنوب مكة، به الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، إبان الهجرة، وهذا الغار عبارة عن صخرة مجوَّفة في قمة الجبل، أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى، ولها فتحتان، في مقدمتها واحدة، وفي مؤخرتها واحدة.
أما حراء، فهو جبل واقع في شمال مكة، على يسار الذاهب إلى عرفات، وقد يسمى بجبل النور، به الغار الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ قبل البعثة، حتى نزل عليه فيه جبريل بأول آية من القرآن. وهو عبارة عن فجوة بابها نحو الشمال، =

وكَداء[1]. ؟ كلاَّ والله لا قائمة لك معي في بيت الفخار ولا قاعدة، ولا بارقة لك في سماء العلا ولا راعدة، واقعدي في بيت حيائك وقرِّي، وعزِّي من هو أكبر منك ووقري، وإياك ثم إياك فلا تحتقري، ولا تنقبي عما قد يعود عليك ضرره ولا تنقّري، واقتصري من شأوك، وقصِّري بعض خطوك، فقد دللتك طريق إخوان الصفا[2]، وقد نصحتك فيما قلته وكفى.

فقامت المدينة عند ذلك على قدميها، ونظرت بعين حمراء إليها، وكشفت للحرب عن ساقها، وأمسكت ملابس فخار ضرتها من أطواقها، وقالت:

أنا ابن جلا وطلاعُ الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني[3]

= تسع نحو خمسة أشخاص جلوساً، وارتفاعه قامة متوسطة. (شفاء الغرام للفاسي ١ : ٢٨).

(١) كُدىً: الثنية السفلى بمكة، مما يلي باب العمرة. وكداء: الثنية العليا بمكة، مما يلي مقابر المعلاة، وأما كُديٌّ فهو موضع بأسفل مكة. وقد تكرر ذكر الأولَيين في الحديث. (النهاية ٤ : ١٥٧).

(٢) إخوان الصفا: هم جماعة سرية مزجت الدين والسياسة بالفلسفة، ظهرت بالبصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ألفت رسائل تربو على الخمسين، تكوِّن ما يشبه دائرة معارف. سميت بذلك لما كان يشمل أفرادها من تآلف وصفاء، وهي وثيقة الصلة بالشيعة وبالإسماعيلية الباطنية. (الموسوعة الثقافية ص ٣٧ ـ دار المعرفة ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧٢ م) وقد يكون المؤلف أراد مجرد معنى الأخوّة والصفاء فقط.

(٣) قائله هو سُحيم بن وثيل الرياحي. ومعنى (أنا ابن جلا): أنا ابن الذي يقال فيه: جلا الأمور وكشفها. وهو مثل يضرب للمشهور المعلوم لكل الناس، وقد تمثل به الحجاج بن يوسف على منبر الكوفة. (مجمع الأمثال ١ : ٣١).

تالله لقد وضح الصبح لذي عينين[1]، ولا يطلب أثر بعد عين[2]. ويحك ما هذا الافتخار مع الافتقار، والاستصغار لكبير المقدار، وإن كنت تقولين: إني أصغر منك سنًّا، فافهمي المعنى، فأشرف أعضاء الإنسان العين، والإنسانُ شرفُ الحدقة، وإن الذبابة لتدمي مقلة الأسد، وفي الشرارة ضعف وهي محرقة[3]، كيف ومقداري كبير، وشرفي خطير.؟ فاحذري، فمتى لاقى زهر شبابي هرم سنّك.؟ ويحك، أما يكفيك أنك لا تعين ولا تسمعين، ثم توبخين وتقرِّعين.؟ فلا بالمواعظ تتعظين، ولا من عظم الملام تمتعضين، فإن كنت أم القرى، فمن صفتي أنا: القرية التي تأكل القرى[4]، فجميع البلاد في جوفي، وكل الصيد في جوف الفَرا[5].

---

(١) هذا مثل يضرب لتمام الوضوح.

(٢) هذا مثل يضرب لمن ترك شيئاً يراه، ثم تبع أثره بعد فوت عينه، وأول من قال ذلك مالك بن عمرو العاملي. (مجمع الأمثال ٢ : ٢١٥).

(٣) إشارة إلى بيتين من الشعر ذكرهما ابن خميس في (الشوارد) دون نسبة، وهما:

لا تحقرنّ صغيراً في مخاصمة ... إن البعوضة تُدمي مقلة الأسد

وللشرارة حَقْرٌ حين تنظرها ... وربما أضرمت ناراً على بلد

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة الوارد في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرتُ بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب. وهي المدينة، تنفي الناسَ كما ينفي الكيرُ خبث الحديد».. رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة (باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس) رقم ١٨٧١ ورواه مسلم في كتاب الحج (باب المدينة تنفي شرارها) رقم ١٣٨٢ ـ قالوا: ومعنى تأكلها: تفتحها، وقد كانت مكة ضمن فتوحات المدينة.

(٥) هذا مثل يضرب لمن يفضّل على أقرانه. والفَرا ـ بفتح الفاء ـ : الحمار الوحشي، وجمعه فِراء ـ بكسر الفاء، وبالمد.

أما تعلمين أن كل البلاد افتُتحت بالسيف وافتُتحتُ بالقرآن. ؟ أما بلغك أن مني ظهر الدين وانتشر الإيمان. ؟ فهل امتزتِ بهذه المزية، أم حصلت لك هذه الخصوصية. ؟ وعلى الحقيقة فأنا التي فتحتك، ومنعت عنك الضير، والخيرَ منحتك، فما عرفتِ لي هذا القدر، ولا رفعت مني بذلك من القدر، لا يشكر الله من لا يشكر الناس[1]، ولكن:

من يفعل الخير لا يعدمْ جوازيه
لا يذهب العُرف بين الله والناس[2]

وأما قولك بأنك خُصصتِ من الإقامة بالأكثر وخُصصتُ بالدون، فقد ذهلت عن معنى[3]: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[4]، بل أقول لك: اعكسي تصيبي، فنصيبك من ذلك عُشر معشار نصيبي[5]، فإنَّه ﷺ حيٌّ بمثواه[6]، ولكنه آوى إلى الله فآواه، ومتى طلع بدري من ثنيات الوداع لم يطلع لك معي نجم، أو تبسمت ثنايا ثغور أكامي بكت جفون تلالك وكُداك ولم يبق لجسمها حجم، أو استرقت شياطين حرائك السمع من سماء سموي قابلتها ملائكة السكينة من سكاني بالرجم. فإن فخرت بوادي إبراهيم، ففي

(١) هذا حديث رواه أبو داود في كتاب الأدب (باب في شكر المعروف) رقم ٤٨١١ ورواه أحمد في أكثر من موضع في مسنده.
(٢) هذا بيت مشهور للحطيئة، من سينيته التي هجا بها الزبرقان بن بدر.
(٣) في الأصل: (فذهلت عن المعنى).
(٤) سورة الحج، آية ٤٧.
(٥) في الأصل: (فنصيبك عشر من ذلك معشار نصيبي).
(٦) هي حياة برزخية لا نعرف كنهها، وإلاَّ فقد قال تعالى في سورة الزمر، الآية ٣٠: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾، وانظر وفاء الوفاء ٤: ١٣٥٢.

كل واد من أوديتي قلب المحب يهيم، وإن كان حراء عندك جسمه وقلبه، فأُحُد جبل يحبنا ونحبه[1]، وأين العقيق من البطحاء، والدر من الحصباء.؟ بل أين الهباء من البهاء.؟ ومع ذلك فلي فضل سوى ما ذكرت، وشرف غير ما إليه أشرت، وهو ما يبدو بأرجائي من الأنوار، ويظهر من معروف جلي التجليات وسرّ الأسرار، ويكفيك من عظيم خطري وسعادة جدِّي، أن البركة موجودة متحققة في صاعي ومُدِّي[2]، فهل لك مثل هذه المنقبة.؟ أم هل وصلت إلى هذه المرتبة.

فلما سمعت مكة هذا القول، قالت: اللهم إني أبرأ إليك من القوة والحول، وأستمد منك الفضل والطول، لقد آلت هذه الفريضة إلى العول[3]، ثم التفتت إلى صاحبتها التفات الأسد الخادر، وأتت من مفاخرها بالأول والآخر، وقالت: الآن حمي الوطيس[4]، وزال

---

(١) يشير إلى حديث أنس بن مالك، الوارد في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ نظر إلى أحد فقال: «إن أُحداً جبلٌ يحبنا ونحبه».. رواه البخاري في كتاب المغازي (باب أحد جبل يحبنا ونحبه) رقم ٤٠٨٣، ٤٠٨٤ ورواه مسلم في كتاب الحج (باب أحد جبل يحبنا ونحبه) رقم ١٣٩٣ واللفظ له.

(٢) يشير إلى حديث عائشة الذي رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة (باب ١٢) رقم ١٨٨٩ وفيه «اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا، وصححها لنا، وانقل حُمّاها إلى الجحفة».

وحديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم في كتاب الحج (باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة) رقم ١٣٦٨ ونصه: «اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مُدّهم».

(٣) العول: هو في المواريث عبارة عن زيادة في السهام ونقص في الأنصباء.

(٤) هذا مثل يضرب للأمر إذا اشتد. والوطيس: حجارة مدوّرة، فإذا حميت لم يستطع أحد أن يطأ عليها. ويروى أن النبي ﷺ رُفعت له أرض مؤتة، فرأى معترك القوم فقال: «الآن حمي الوطيس»، أي اشتد الأمر. (مجمع الأمثال ٢: ١٠٤).

التدليس والتلبيس، أذكرتني الطعن وكنت ناسياً[1]، ويحك أتسدّدين إليّ سهاماً أنا لك رشتُها، وترسلين إلي من افتخارك ظُباً أنا التي اخترتها.؟ أظننت أنك مثلي، وأن كلامك يدخل أذني ويقبله عقلي.؟ أما عرفت من لفظي فضلي.؟ أما تحققت أن أبناء لبونك لا يستطيعون صولة بُزْلي[2].؟ فهل لِعقدِك نحر كنحري.؟ أم قد غرقت سفينتُك في لجّ بحري.؟ أما تخشين أن تحترقي إذا دنوت من تلك الجمرات[3].؟ أما في قلبك من محسّر[3] حسرات.؟ بلى والله تذهب عنك أنصارك ويفترق الجمع[4]، متى قابلتك من مفردي بجمع، فلو شاهدت عرفة لعرفت ما قدرك، ولحقرت ما عظمت من أمرك، أتراك إذا خطرت بوادي الأراك، يخطر ببالك أن ما ثَمَّ سواك.؟ وإن ذُكر نَعْمان[5]، هل بنعمٍ سال واديك.؟ بل إذا أعيد حديث حُنين،

---

(١) هذا مثل يضرب في تذكر الشيء بغيره. وأول من قاله رُهَيْم بن حَزْن الهلالي. (مجمع الأمثال ١ : ٢٧٩).

(٢) ابن اللبون: ولد الناقة إذا كان في العام الثاني، سمي بذلك لأن أمه تكون قد وضعت غيره، فصار لها لبن. قالوا: ويجمع على أبناء لبون، للذكر والأنثى.
والبُزُل: بضم الزاي، وقد تسكّن للضرورة: جمع بَزُول، وهو البعير الذي بزَل، أي انشق نابه وطلع، وذلك في السنة الثامنة. ويقال له أيضاً: بازل، وجمعه حينئذ بُزَّل، كراكع ورُكّع. قال جرير:

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ
لم يستطع صولة البُزْلِ القناعيس

(لسان العرب ـ مادة لبن ـ وبزل).

(٣) يقصد وادي محسّر، وجمرات منىً، مستغلاً المعنى الآخر للكلمتين.

(٤) في الأصل: (نذهب عن أنصارك..).

(٥) قال في (لسان العرب ـ مادة نعم): وهما نَعمانان، نَعمان الأراك بمكة وهو نعمان الأكبر وهو وادي عرفة، ونَعمان الغرقد بالمدينة، وهو نعمان الأصغر، ثم قال: =

سكن حَنينُ نياق ناديك، فكم من مخالفٍ لهواه وليٍّ محالف.! وكم من واقفٍ ببابي وعاكف.! وكم من طائف بي ومعتمر.! فمرحباً بطوّاف بفنائي، وإذا ذُكر الصالحون فحيّهلاً بعمر[١]، أما علمت أن من صرف شراب المحبة[٢] مشروبي.؟ أما عرفت أنه لا يزال معي محبوبي.؟ أما كلّ من أتاني وقلبه سليم، يروح وهو من الوجد بي سليم.؟ فأقسمُ من نجوم مياهي بالزاهر، ومن جيادها في مصافّ مصافيها بالسابق الماهر[٣]، لئن لم تكفكفي غرب سوانيك[٤]، وتَثْني عنان ثنائك على مغانيك، لأجرّدن إليك من مفاخري جيشاً مالك به يدان، ولألقين أنصارك بكل هاشميّ خؤولته بنو عبد المدان[٥]، فقفي

= ونعمان بالفتح وادٍ في طريق الطائف يخرج إلى عرفات (قلت هو نعمان الأكبر الذي أشار إليه قبل قليل) قال عبدالله بن نُمَيْر الثقفي:

تضوّع مسكاً بطنُ نَعمان أن مشت ... به زينبٌ في نسوة عطرات

ويقال له نعمان الأراك، قال خُلَيْد:

أما والراقصات بذات عرق ... ومن صلى بنَعمان الأراك

(١) من الأمثال الإسلامية، وعمر: هو ابن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: (من صرف الشراب المحبة).

(٣) الزاهر، وجياد أو أجياد: مكانان معروفان بمكة، والقسم بهما تعبير أدبي لا يقصد به التعظيم، وإنما الإعزاز، وإلاّ فإن القسم بغير الله لا يجوز.

(٤) في الأصل (غرب غرب سوانيك). والسواني: جمع سانية الماء.

(٥) هذا جزء من بيت لدعبل الخزاعي، وهو:

فلو أني بُليت بهاشميٍّ ... خؤولته بنو عبد المدان

وبعده: =

عند حدك، فكم تُرهبين بحَرَزِك وبَدِّك[1]، وتكيلين بصاعك ومُدِّك، ولا تكوني كالباحث عن حتفه بظِلفه[2]، فمقتل المرء بين فكّيه[3]، وربما قُتل الإنسان بسيفه[4]، وإياك وبأسي العتيد، وبطشي الشديد، وإن كان لسان فخرك ذهباً فلساني حديد، وحذارِ ثم حذار من شِفار النِّفار، ونصالِ نضال النِّظار والنِّقار، فقديماً قيل:

توقَّ معاداة الرجال فإنها
مكدِّرة للصفو من كل مشرب
ولا تستثر حرباً وإن كنت واثقاً
بشدة بأس، أو بقوة منكب
ولا يشرب السمّ الزعاف أخو حجاً
مُدِلاً بدرياقٍ لديه مجرَّبِ[5]

= صبرت على عداوته، ولكن
تعاليْ فانظري بمن ابتلاني

ويؤتى به في اختيار النبيل في العداوات لتتكافأ الأعراض. (الكامل ٢ : ٧٠).

(١) الحَرَز ـ بفتح الحاء والراء ـ: ما يُحرز ويُقتنى. والبَدّ ـ بفتح الباء ـ: النصيب من كل شيء.

(٢) هذا مثل يضرب لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره. وأصله أن رجلاً كان جائعاً بالفلاة القفر، فوجد شاة، ولم يكن معه ما يذبحها به، فبحثت الشاة الأرض فظهر فيها مدية فذبحها بها. (لسان العرب ـ مادة حتف).

(٣) هذا مثل معناه: سبب قتله بين لَحْييه، وهو لسانه (لسان العرب ـ مادة قتل) وفيه دعوة إلى حفظ اللسان.

(٤) هو مثل يضرب في حصول الشر من الجهة التي كان يتوقع منها الخير، وهو قريب من المثل الآخر: (يؤتى الحذر من مأمنه).

(٥) قائل هذه الأبيات هو أبو الفتح البُستي. (الشوارد لابن خميس ١ : ٨٥).

ويكفيك من شرفي أن الجمهور، يحكم لي عليك بالعلِّية والظهور[1].

فلما سمعت المدينةُ كلامها، ضربت طبولها ونشرت أعلامها، وبرزت بروز الأسد من غابه، والسيف من قرابه، وقالت: ويحك.! أتستصغرين قدري، وتحتقرين أمري.؟ وأنَا جُذَيْلها المحكك وعُذَيْقها المرجّب[2]، وسنانها المذرَّب، وفارسها المجرَّب، فواعجبا.! تستخفِّين ثم تستخْفين، وتستكفّين ولا تكُفِّين. أما بلغك أن البادىء أظلم[3]، وأن دفع الشر بالشر أحزم.؟ أما سمعت قول الأول:

---

(١) قال السيوطي في (الحجج المبينة ص٣٧): لا خلاف أنها أفضل الأرض. ثم ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أن مكة أفضل من المدينة. قال النووي في (شرح المهذب): وبه قال علماء مكة والكوفة، وابن وهب وابن حبيب المالكيان، وجمهور العلماء. قال العبدري: وهو قول أكثر الفقهاء، وهو أصح الروايتين عن أحمد. قال ابن حزم: وذهب إليه من الصحابة: جابر، وابن عمر، وأبو هريرة، وابن الزبير، وعبدالله بن عُديس، وعلي، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وغيرهم.
وذهب مالك وجماعة إلى أن المدينة أفضل، ورُوي عن عمر رضي الله عنه. ثم قال في (ص٤٢): وأقول: المختار الوقف عن التفضيل، لتعارض الأدلة، بل الذي تميل النفس إليه تفضيل المدينة.

(٢) هذا مثل يضرب في إظهار الخبرة بالأمور.
والجُذَيل: تصغير الجِذْل، وهو أصل الشجرة، والمحكَّك: الذي تتحكك به الإبل الجرباء، وهو عود ينصب في مبارك الإبل، تتمرَّس به الإبل الجرباء. والعُذَيق: تصغير العَذْق، وهو النخلة. والمرجَّب: الذي جُعل له رُجْبة، وهي دعامة تبنى حولها من الحجارة، وذلك إذا كانت كريمة وخافوا عليها أن تنقعر من العواصف.
والتصغير هنا للتعظيم، وهو من قول الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري في يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر رضي الله عنه، يريد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله. (مجمع الأمثال ١ : ٣٢).

(٣) مثل معروف: (الخير بالخير والبادىء أكرم، والشر بالشر والبادىء أظلم).

دع الشــر وانــزل بــالنجــاة بمعــزل
إذا أنت لم يصبغـك في الشر صـابـغ
ولكن إذا مــا الشــر أرخى عنــانــه
عليـك فجـوِّد دبـغ مـا أنت دابـغ[1]

وقول الآخر:

إذا أنت لم تُنـصف أخــاك وجـدتــه
عـلى طـرف الهجـران إن كـان يعقـل
ويـركب حـدَّ السيف من أن تُضيمـه
إذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل[2]

وعجبت منك كيف تفتخرين بواديك وبَواديك، وينادي مناديك بناديك.؟ وهنا أقول: ليس هذا بعشّك فادرجي[3]، ولا بمقامك فاخرجي، وحين وصلت إلى هذا المعترك، حصلت في الحِبالة ووقعت في الشَّرَك، وأمكنتِ الرامي من الرميّة، وأرحتِه من هذه القضية، فمتى ذُكر لسَمُومِك نسيمي العليل صار قلبه يحنّ مريضاً أو كالمريض، أو عارض فضائي الواسع ما بين مأزميك[4] وقع معه في الطويل العريض، أو عاينت شجراتك من نخيلي تلك الغمرات، أو

---

(١) لم أهتد لقائله.

(٢) قائل هذين البيتين الشاعر الأموي معن بن أوس المزني من قصيدة له مطلعها:

لـعـمـرك مــا أدري وإني لأوجَــلُ
عــلى أيِّـنــا تـعــدو المـنـيــة أول

أنشدها أمام معاوية بن أبي سفيان. (الكامل للمبرد ١ : ٣٦٤).

(٣) هذا مثل يضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره. (مجمع الأمثال ٢ : ١٨١).

(٤) مأزميك: تثنية مأزم، والأصل فيه: الطريق الضيق بين جبلين، والمقصود هنا ما كان بين عرفة ومزدلفة. =

شاهد واديك خلال أشجار العقيق[1] ظلال تلك السَّمُرات، يتلهب أسفاً على ما فاته من ذلك ويتلهب بالزفرات، فلا جرم كان في قلبه لذلك جمرات[2]، ومهما بدت لك غابتي[3] فررت من زئير آسادها، أو لاحت لك العوالي[4] من جناني، رُدّت سيوف فخرك إلى أغمادها، أما سَمُومك تذوب منه كل كبد حرَّى.؟ وكلما حلا وقت فيك مرّ سريعاً وأعقب مُفارقَه صِبْراً، فأنت من جبالك مع أرضي الواسعة في ضيق، فلْتسافر عينُ شعابك الضيقة في فسيح أرضي، ولْتمرّ بي فأنا على الطريق، وما برحت تُطيف من الأكباد برياضي البهيجة حرارُها، فتطفأ بنسائمي الأرجة نارُها ويخبو أُوارُها. واعلمي أنك متى قابلتني بنحرك كتعتُك بكف حجتي ولم أدفع مقالتك بصدري، أو تبذّلت في حُنَيْنك قابلتك من الجمال ببدري[5]، وإن جلوت عروس كعبتك أتيتُ من المِليّ[6]، بالبهاء والكمال الجلي، أو

= روى الأزرقي (١ : ٢٤١) عن عثمان بن ساج رحمه الله تعالى قال: أخبرني سعيد أن آدم لما فرغ من حجته لقيته الملائكة بالمأزمين فقالوا: بَرَّ حجُّك يا آدم، فلقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

(١) هو أكبر أودية المدينة وهو كما جاء في الصحيح: واد مبارك.

(٢) يعلل أدبياً لوجود الجمرات في وادي مكة.

(٣) الغابة: هي مَغيض مياه أودية المدينة، لا تزال تحمل هذا الاسم إلى اليوم، وهي واقعة شمال المدينة ضمن المنطقة المعروفة بالخُلَيْل.

(٤) العوالي: جمع عالية، وهي في الأصل للمناطق العالية من المدينة، فقد كان القدماء يقسمونها إلى عالية وسافلة، وهي الآن تشمل كل الأحياء والمزارع الواقعة في الجهة الجنوبية للمسجد النبوي والجنوب الشرقي إلى ثلاثة أكيال أو أكثر، ويوجد الآن شارع فيها يحمل (اسم العوالي) وهو في نفس الاتجاه.

(٥) ببدري: يقصد بدر التي وقعت فيها غزوة بدر، وهي الآن مدينة على طريق المدينة ـ ينبع.

(٦) لعله يقصد المفاخرة بثواء الرسول ﷺ فيها.

افتخرت بطوافك وعُمرِك، افتخرتُ من مقام الجمال والجلال بعلي، وإن أجريتِ ذكر زمزمك ومصافيك، أو مراعي شعابك وواديك، فاسمعي ثم انظري، فليس الخبر كالعيان[1]، ماء ولا كصَدّاء[2]، ومَرْعَى ولا كالسَّعْدان[3]، وإن يكن عندك المشروب، فعندي الساقي، أو سليم المحبة، فلديّ الصاعد في درج المعالي والراقي، وأراك تفتخرين بوادي الأراك، وتجلبين جيادك بين يديك ووراك، فبالله إلا ما تركت ما عراك من مِرَاك، فكم لي بأراضي رياضي من عين كالخنساء تجري على صخر[4]، فأنا سيدة البلاد، كما أن ساكني سيد العباد، ولا فخر. وأُقسم من غاباتي بالأُسود[5]، ومن أكباد لاباتي بالحرار السود، ومن أزهر رياضي بوشْي البُرود، ومن أغصان نخيلي وأشجاري بكل قدٍّ أملود، ومن رماح بساتيني بالعالية، ومن سواقي جناني بكل ساقية جارية، وجارية ساقية، لئن لم تتركي بعض نِقارك، وتلبسي ثوب وقارك، لأبعثن إلى مياهك من عيون نقاد عيوني من يُظهر زيْف[6] جيادها، ولأجرّدن إليها من معالمي جيشاً يقلع خيام فخرها بأوتادها.

(١) هذا مثل قال عنه المفضل الضبي: إنه من جوامع كلمه ﷺ. (مجمع الأمثال ٢ : ١٨٢).

(٢) هذا مثل يضرب للشيء يفضل جنسه، وأول من قاله: ابنة هانىء بن قبيصة، زوجة لقيط بن زرارة، حين تزوجها رجل آخر بعد مقتله. وصدّاء: اسم ركيّة لم يكن عندهم أعذب من مائها. (مجمع الأمثال ٢ : ٢٧٧).

(٣) هذا مثل يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله. وأول من قاله الخنساء الشاعرة. والسَّعْدان: نبات ذو شوك طويل حاد، من نبات الصحراء، وهو من أنجع المراعي وأنفعها في إدرار اللبن. (مجمع الأمثال ٢ : ٢٧٦).

(٤) استغل اسم الخنساء وأخيها صخر في التورية.

(٥) تقدم أن المقصود بمثل هذا التعبير هو بيان أهمية الشيء المقسم به لا غير، إذ القسم بغير الله لا يجوز.

(٦) في الأصل (سيف جيادها).

وأما ما احتججت به من كلام الجمهور، وأن ذلك عندهم هو القول المشهور، فجوابك: فرقٌ ما بين الدرهم والدينار في الصرف، والنـاسُ ألف كواحـد، وواحدٌ كـألف، وإنك إذا حققت المـآخذ والمدارك، تحققتِ أن كمالي فوق كمالك، وإذا أمعنتِ النظر حق الإمعان فما لَك كمالِك[1]، وحسبك من دحوض حُجتك والانقطاع، أن ما ضم أعضاءه ﷺ أفضل الأرض بالإجماع[2]، وهاكِ خذي من الفضائل ما لبس مثبتاً في بطاقتك، ومن كُوىَ المفاخر ما يكون فوق طاقتك: أليس أن الطاعون لا يعرف أنقابي، ولا يدخل كما لا يدخل الدجال باباً من أبوابي[3]. ؟ فهل لك في هذه المسألة قول أو عمل. ؟ كلّا والله، بل لا ناقة لك في سرح هذه الخصوصية ولا جمل[4]، وما برح سكّاني يودون كلَّ واصل ووارِدٍ عليهم[5]، وكذلك أيضاً يحبون

(١) يقصد الإمام مالك رضي الله عنه، ليس لك مثل مالك، وكان رضي الله عنه يرى تفضيل المدينة، وهو من ناحية أخرى من أبنائها.

(٢) نقل هذا الإجماع السيوطي في (الحجج المبينة ص ٤٨) فقال: محل هذا الخلاف في غير قبره ﷺ، أما هو فأفضل البقاع بالإجماع، نبه على ذلك القـاضي عياض وغيره.

كما ذكره غير واحد، كالسمهودي في (وفاء الوفاء ١ : ٢٨) حيث يقول: قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة.

(٣) يشير إلى حديث أبي هريرة الوارد في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «على أنقاب المدينة ملائكةٌ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال».. رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة (باب لا يدخل الدجال المدينة) رقم ١٨٨٠ ورواه مسلم في كتاب الحج (باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال إليها) رقم ١٣٧٩.

والأنقاب: جمع نَقَب ـ بفتح النون والقاف ـ وهي المداخل، أو الطرق التي يسلكها الناس.

(٤) هذا مثل يضرب للتبرِّي من الظلم والإساءة، وأول من قاله الحارث بن عُباد حين اعتزل حرب البسوس (مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٠).

(٥) في الأصل: (يودون من واصل من كل واصل. . .).

من هاجر إليهم، ولا يستبدون بشيء عن جارهم ولا يستأثرون، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ويؤثرون[١]، فأسبلي عليك أستار حجبك، وأقلّي من تيهك وعُجبك، وارجعي من قريب إلى ربك.

فلما انتهى المقال بهما إلى هذا المقام، وبُليت كل واحدة منهما من صاحبتها بالداء العقام، أقبلت مكةُ عليها وقالت: دعينا من المِراء والجدال، وكثرة القيل والقال، فإلى كم هذا النزاع والمِصاع[٢]، وكيل الكلام بالمُدّ والصاع، وتعاليْ فلنرفع أمرنا إلى حَكَمٍ يريحنا[٣] من التعب والنصب، ويزيحنا من مكاننا هذا الذي حصل فيه الخلاف والشغب، فقالت لها أختها: ومن يكون ذلك.؟ أوَيجسر أن يسلك هذه المسالك، غيرُ من اعتضدت بنصره الملة الإسلامية، وظهرت بحسن إيالته الشريعة المحمدية، المخصوص بعناية رب العالمين، المؤيد بالملائكة المقربين، سيد الملوك والسلاطين، كهف الفقراء والمساكين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي شمل عدله البلاد[٤]، وغمر فضله العباد، السلطان الملك الناصر حسن[٥]، أسامٍ لم تزده

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿ والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتُوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾.. سورة الحشر، الآية ٩ والدار والإيمان من أسماء المدينة.

(٢) المِصاع: مصدر ماصَع يماصع، بمعنى المجادلة بالسيف ونحوه.

(٣) في الأصل: (إلى حكم من يريحنا من...).

(٤) في الأصل: (سمل عدله في البلاد).

(٥) الملك الناصر حسن: هو حسن الناصر بن قلاوون، أبو المحاسن، من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، بويع بمصر صغيراً، بعد مقتل أخيه حاجي المظفر سنة ٧٤٨ هـ وكان اسمه قماري، فلما ولي السلطنة تسمّى (حسناً)، وقام بأمور الدولة الأمير (يلبغا أروس) نائب السلطنة، ووزعت العطايا باسم الناصر، واستمر إلى =

معرفة، ولكن لك ذكرناها، أدام الله أيامه، وأعلى أعلامه، ولا زالت الأمور برأيه العالي منتظمة، وسيوفه في رقاب أعداء الله وأعدائه محكّمة، والممالك بسياسته السعيدة مَحُوطة، وأمورها بسيرته الحميدة بإذن الله تعالى منوطة[1]، وأمره العالي نافذاً[2] في الخافقين، وحكمه السعيد يبلغ المغربين والمشرقين، آمين.

فقالت لها مكة: لله درُّك[3]. ! فما أظرفك وأخبرك بطريق الرشاد وأعرفك. ! ولا غرو[4] فقد كان يقال: أفطن من مدني، وأخبث من أرمني[5]، فعلى الخبير سقطت، وبباب المجد والعُلا حططت، فما هذا التكاسل والقُعود.؟ لتركبْ كل واحدة منا للاغتراب غاربَ قَعود[6] ، ولنمْثلْ بين يديه، ولنطرح أنفسنا لديه، ولنبثَّ ما في صغير

= سنة ٧٥٢، فثار عليه بعض أمراء الجند فخلعوه، وسجنوه بالقلعة في دور الحُرَم، وولوا أخاه صالحاً، (الصالح الثاني)، ثم خلعوه سنة ٧٥٥ وأعادوا الناصر، فقبض على زمام الأمور بحزم، وخافه الناس، فأكمن له مملوكه الأمير يلبغا كميناً، وهو في برّ الجيزة على غرة، وقاتل بعدد قليل من حاشيته، فنجا، وتنكر بزي أعرابي، وأراد السفر إلى الشام، فقُبض عليه في المطريّة وخُنق ورُمي في النيل. وكانت مدة سلطنته الثانية ست سنوات وتسعة أشهر وأياماً. وكان شجاعاً مهيباً، عالي الهمة، محباً للرعية، ميالاً إلى اللهو والطرب، وكثيراً ما كان يصادر أرباب الوظائف لأجل المال. ولد سنة ٧٣٦ وتوفي سنة ٧٦٢ هـ (الأعلام ٢ : ٢١٦).

قلت: وقد كان الحجاز في تلك الفترة يدين بالولاء لسلاطين المماليك، كما ذكر السمهودي في وفاء الوفاء ٢ : ٦٤٧.

(١) في الأصل: (متحوطة).

(٢) نافذاً: منصوب بلا زالت.

(٣) (لله درُّك): أي خيره وعطاؤه وما يؤخذ منه، هذا هو الأصل، ثم يقال لكل متعجّب منه.

(٤) في الأصل: (ولا غرور).

(٥) هذان مثلان من الأمثال المحدثة.

(٦) القَعود: البكر من الإبل إلى أن يصير في السادسة.

صدورنا، ولنشرح له جميع أمورنا، ونُبرزْ ما كان مكنوناً في تَأْمورنا[1]، فقد وقعنا من فضله وعدله على علَمين، ودفعنا من رأيه العالي وفهمه إلى أشرف حكمين، ففي بيته يؤتَى الحكم[2]، ومن معادنها تُستنبَط الحِكَم.

فتبادرَتا إلى المقام العالي، وجريَتا جريَ السيل، وتسابقَتا تسابُق النهار والليل، فلما حلّتا بالمقام الشريف، ومدّ عليهما أمنَه ذلك الظلُّ الوريف، بدرت المدينةُ وما زالت إلى الخير سبّاقة، وسارت في المقدمة وخلّفت أختها في السّاقة، وأنشدت:

سلا مَنْ سلاني، والفؤاد له سكنْ
عسى يقرن الحسنَى إلى وجهه الحسَنْ
جفانيَ حِبِّي بعد ما كان واصلي
فزاد على ما كان بي من شجاً شجن
وقد كنت أرضى بالخيال وطيفه
يزور، ولكن مَنْ لعينيَ بالوسن.؟
وبي أغيدُ ساجي اللواحظ أهيفٌ
رشيق قوام، ساحرٌ، لفظُه أغن
بديع جمالٍ قد فتنتُ به، وهل
رأى أحد هذا الجمالَ وما افتتن

(١) التأمور ـ بالهمزة ـ: الوعاء، والقلب، يقال: اجعل هذا الأمر في تأمورك، أي في قلبك، وجمعه تآمير.

(٢) هذا مما وضعته العرب على ألسُن البهائم، في قصة معروفة ذهبت جملها كلُّها أمثالاً، ويؤتى به لبيان أن من بيده حوائج الناس ـ كالمعلم والمفتي والقاضي وغيرهم ـ يُذهبَ إليهم ولا يُستدعَوْن، (مجمع الأمثال ٢: ٧٣).

فقامتُه، والرِّدفُ منه، وخدُّه
كغصن على دعصٍ[1]، وورِدٍ على فَنَن
كمنْتُ هواه في الفؤاد، وصنتُه
وليس الذي يبدي الغرامَ كمن كمَنْ[2]
ولكن وشَى دمعي بحبيَ أو فَشا
فشاع، ولم أسطع له الكتمَ إذ علن
فلا تودِعَنْ سرَّ الهوى الدمعَ بعدها
فليس على سرّ الغرام بمؤتمن
وقد شاع حُبي فيه، طاب تهتُّكي
وخلعُ عذاري في هواه مع الوسن
يقولون لي: صف مَنْ سباك جمالُه
فقلت جواباً مجملاً: كلُّه حسن
بمَنْ.؟ قال محبوبي: أراك مُولَّها
فقلتُ: أما تدري بمَنْ.؟ قال لي: بمن.؟
وقال ليَ العُذَّالُ: تعرف ذا الفتى
وقد فُتِنوا إذ مرَّ، قلت: فتىً فَتَنْ
فقالوا: أعنْ علم هَوِيت جمال مَنْ
هوِيت ترى هذا الهيام.؟ فقلت: عن
فقالوا: أما تسلو فقبلك كم سلا
محبٌّ حبيباً.؟ قلت: أما أنا فلَنْ

(١) الدعص: القطعة المستديرة من الرمل، جمعه: دِعَصة، وأدعاص.
(٢) كمن كمن: كالذي أخفى.

وكيف سُلوِّي والغـرام قـد احتـوى

علـيّ، وقلبي بـالـصبـابـة مـرتهـن

إلـيكـم فـإني في المـلاح تـغـزّلي

ومدحيَ في السلطان مَلْك الورى حسن

مليـك ملوك الأرض طـرّاً تهـابـه

شبـابُهمُ، والشِّيب منهـمْ، ومَنْ أسَنْ

لـه أذعـنتْ لَّمـا لسطوتِـه عـنَـتْ

ففي كل جوفٍ منه خوفٌ قد اشتحن

وكـلٌّ غـدا والـرُّعـبُ مـلء فـؤاده

لهيبتـه، والقلبُ قـد فـارق الـبـدن

تـروعهمُ شهبُ الـسـما، وبُـروقُهـا

وإرعادُها، حتى السحاب إذا ارجحن[1]

ومـا ذاك إلا سُـمْـرُه وصِـفـاحُـه

بدتْ، ودويّ الخيل والنقعُ في قرَن[2]

مليـكٌ لـدى الهيجـا تقـول رمـاحُـه:

إليّ انتمى في الفخر سيفُ بن ذي يَزَن

ومـا شكلت في أسـطر الحـرب بِيضُـه

تنقّـطه بـالـطعن سمـر لـه لُـدُن

عِـداه إذا مـا سُلّت البِيضُ سلّمت

نفـوساً، وكـلٌّ ساجـدٌ خـرَّ للذّقَن

---

(١) ارجَحَنّ: اهتز، وانبسط.

(٢) القَرَن ـ بفتح القاف والراء ـ: الحبل.

مــلــيــك لــــه عـــزم وحـــزمٌ وهمّـــةٌ

سمَتْ أن تُسامَى، والسماك لها سكَنْ

ففي الحِلم ما رضوى. ؟ وما الليث في الوغَى

لديه. ؟ وفي الجدوى فما العارضُ الهتن. ؟

همـامٌ فـما ابن المنــذر الملك عنـده. ؟

ومن ذو رُعيْن بعده. ؟ أو فذو جَدَن. ؟

كـذاك ومن سـابــور. ؟ والملكُ قيصـر

وبَهرام جَوْر، ثمّ كسرى، ومَنْ. ؟ ومَنْ. ؟

لـــه ألقت الـدنيــا مقــاليــدَ ملكهــا

ولا غــرو، لّمـا كـان إسكنـدر الــزمن

أعـاد سرورَ النـاس بالعـدل بعدمـا[1]

من الجور كانوا في شرور، وفي حَـزَن

وبـدّل خوفاً بـالأمـان، وعمّـر الــ[2]

ـبلاد: قـراهـا في الثغـور مـع المـدن

وقـــام بنصـر الـــدين في الله قـــومـــةً

بـنيــة صـــدق أخمــدت لهـب الفِـتـن

مليـك يحـلّ المشكـل المعضـل الــذي

يقصّـر عنـه في الـورى فَـطِنُ الفِـطن

ويَشْـري المعالي بـالعـوالي، ومـا غلت

معـــالٍ إذا كـــان العـــوالي لهـــا ثمن

---

(١) في الأصل: (بالعدل إن).

(٢) في الأصل: (وبدّل الخوف بالأمان وعمر الـ)، ويبقى أيضاً أن الباء مع مادة هذا الفعل كان ينبغي أن تدخل على المتروك، وهو الخوف.

مـليـكٌ بـضـبطِ المُلكِ طـولَ نهارِه

لـه شُغُلٌ، يَعتـدُّ ذا أحسـن المهَـنْ

وفي الليـل مشغـولٌ بـطاعـة ربِّـه

فللنـاسِ مـا يبـدو، ولله مـا بَـطَن

أبـاد الـطغـاةَ المـارقـين وأهلك الـ

ـبُغـاةَ بسيف الحق، إذ أخمـد الفتَنْ

فـدولتُـه الـغَرَّا صفَتْ، وتصـافت الـرّ

عـايـا، وزالـت عنهـمُ محنُ الإحـن

منـاقبُـه في كـل قُـطرٍ تـقـاطـرتْ

أجـل، وعـلى الأعـداء غـاراتُهـا تُشَنْ

سـرايـاه سـارت للحجـاز فـأصلحت،

كـذاك بـإذن الله يُـسـصلحُ الـيَمَـنْ

فـآلـت فـما تنفـك أو تـبـلغَ المُنَى

فـلا مَسَّهـا مِن بعـد هـذا أذىً إذن

كمـاةٌ سلتْ أوطـانها وسـرَتْ، فـما

تـرى غير أن يقضي لهـا وطـراً قَـطَنْ

حمـاةٌ لهـا يـوم الهُـيـاج حمـيّـة

إذا حَميَـتْ نـارُ الـكـريـهـة بـالمحَـنْ

وليس لهـا سورٌ سـوى البيضِ والقنا

كـما أن مـا غـير الثيـاب لهـا جُنَن

ومِنْ صهوات الخيلِ أضحت حصونُها

بهـا تحتمي، إن الحصون هي الحصُنْ

بـه ملّةُ الإسـلام عـزّتْ وأصبحتْ

بـه سبُـلُ الإيمـان واضحـةَ السُّنَـن

غـدا كـلُّ قُـطر نحوه فـاتحاً فـماً
وإن لم يكن هـذا المليـك لـه فمن.؟

وسيــرتــه المثــلَى غــدتْ مثَــلاً لــه
وسارتْ، وصارت عزّةَ الدهـر والزمَنْ

مــتى قـدّ يمناه تـنـعّـمْ بمـدِّهـا
فكالبحر عنـد المدِّ إن قسْتَ بـل أمَنْ

فيـا مُبتغي وصفاً لـه، خُـذْه مجمـلاً:
جـواد فلم يبخـل، شجـاع فـما جبُن

جــوارحُنــا تــروي بنقــل عَــذُولهــا
أحــاديثَ مـا أولى من الفضــل والمنَنْ

فعَنْ جــابــرٍ قلبٌ، وعن هبــةٍ يــدٌ
وعــن قــرّةٍ عــينٌ، وعن حسَنٍ أذُن

رويــدك يـا بــاغي نــداه فــإنــه
لــه منَنٌ لم يستــطع حملهــا المنَنْ

منـاقبُه جلّت عن الـوصف، واغتـدت
يقصِّــر عنهــا ذو البــلاغــة واللَّسَن

فــدانت لـه الــدنيــا، وخلِّد ملكُــه
ودام لــه التـأييــد والنصـر في قــرَن

فطاعتُه فـرضٌ على النـاس، والـدُّعـا
لــه واجبٌ، والمـدح فيــه من السُّنن

وخذها عروساً صـاغها الفكـر، حَلْيُها
حـلاك، وفي علياك عــزّت فلم تَهُنْ

وصينت إلى أن قابلتك فلم تَذِل[1]

ولم تُمتَهَنْ بين الأنام ولم تُهَنْ

حباك بها من لم يزَل داعياً لكم

ومبتهلاً كمّاً ينوب مناب مَنْ[2]

فلما رأتها صاحبتها مجلِّيةً حين تقدمت وتكلمت، وصارت هي خلفها مصلِّية[3]، سلّمت، ثم إنها التفتت إلى صاحبتها وقالت: لا عطر بعد عروس[4]، فقد زال عنا ـ بحمد الله ـ الشقاء والبُؤس، ووصلنا إلى المقام العالي والمحل المأنوس، فتعالي فلتندب كلُّ واحدة منا مُصابها، ولتذكر ما أصابها.

فقالت لها المدينة: قاتلك الله[5]، أتشربين حسواً في ارتغاء، وتمزجين شكوى برجاء، على غيركِ العفاء.؟ فما هذا الدهاء والجفاء.؟

فقالت: سبق السيف العذل[6]، وبطل القول بعد العمل، فاتركي عني اللوم، واستعديني باقي اليوم، فقد اجتمع المشكوّ

---

(١) تذِل: تهون وتمتَهن، من ذال يذيل.

(٢) هذه القصيدة للزرندي نفسه. (انظر التحفة اللطيفة للسخاوي ٣: ٢٦٨).

(٣) الجواد المجلّي هو السابق. والمصلّي هو الذي يليه.

(٤) هذا مثل يضرب في الدعوة إلى بذل الشيء في أوانه، قال المفضل: عروس ها هنا اسم رجل تزوج امرأة، فلما أهديت له وجدها تَفِلة، فقال: أين عطرك.؟ فقالت: خبّأته، فقال: لا مخبأ لعطر بعد عروس. وقيل: إنها قالته بعد موته. (لسان العرب ـ مادة عرس).

(٥) هذا تعبير اعتاده العرب، وقد فقد معناه المباشر.

(٦) هذا مثل يضرب لفوات أوان التراجع في الأمر. وأول من قاله ضبّة بن أدّ، لمّا لامه الناس على قتله قاتلَ ابنه في الحرم. (مجمع الأمثال ١: ٣٢٨).

والشاكي، وإن لم تكن تبكي فكن متباكي[1]:

بــالله يــا حمــامَ أســعــديــنَــا
إن الحــزيــن يــســعــد الحــزيــنــا[2]

ومُنِّي عليّ يا خليلتي بقطرة من الدمع، فعسى أن يزول هذا البين من البين، وجودي بعينك لي ساعة، فقبلك جاد الخليل بالعين:

أجــارتــنــا، إنــا غــريــبــان هــا هــنــا
وكــل غــريــبٍ للغــريــب نســيــبُ[3]
وإن لم تكــونــوا مثلنــا في اشتيــاقنــا
فكــونــوا أنــاســاً تعــرفــون التجمُّــلا[4]

ثم إنها أقبلت على الجناب الشريف وتنهدت، ورفعت عقيرتها وأنشدت:

فقُــد بقيــة شكــوي من يــدي زمن
أضــحى يــقــدّ أديمي قــدَّ مُــنــتــهسِ
دعــوتــك الــدعــوة الأولى وبي رمَقٌ
وهــذه دعــوتي والــدهــر مفتــرسي[5]

ثم قالت: ما قلت ما قلتُ، حتى لحقت السكين العظم[6]،

---

(١) كذا في الأصل، حفاظاً على السجع، والصواب (متباكياً) لأنه خبر كان.
(٢) لم أهتد لقائله.
(٣) قائل هذا البيت هو صخر بن عمرو بن الشريد. (الكامل للمبرد ٢ : ٣٤٥).
(٤) لم أهتد لقائله.
(٥) لم أهتد لقائلها.
(٦) هذا مثل يضرب لما جاوز الحد. (مجمع الأمثال ١ : ٩٦).

وبلغ السيل الزُّبا[1]، ووصل الحزام الطُّبْيَيْنْ[2]، قال الحائط للوتد: لِمَ تَشقُّني.؟ قال: سل من يدقني، لم يتركني ورأيي، الفهرُ الذي من ورائي:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي
وإلا فأدركني ولمّا أُمزَّقِ[3]

وإذا الفتى لعبت به أيامه
لم يستعن إلا بعون كريم

فأعن على الزمن الغشوم فإنما
يُدعَى العظيم لدفع كل عظيم[4]

فقالت لها المدينة: إلى هنا انتهيتِ قاتلك الله، فما أبعد ما رميتِ. ثم قالت: لا عتْب يغشاك إن شاء الله، فلا لوم، ولا كرب إلا بعد ذلك اليوم، وأنشدت:

وما شرب العشاقُ إلا بقيّتي
ولا وردوا في الحب إلا على وردي[5]

ولكن شكواي لا تشبه شكواك، وبلواي لا تماثل بلواك،

---

(١) هذا مثل يضرب لما جاوز الحد، والزُّبَى: جمع زُبية، وهي هنا: الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها كان جارفاً مجحفاً. (مجمع الأمثال ١: ٩١).

(٢) هذا مثل يضرب لما يضرب له المثلان السابقان. (مجمع الأمثال ١: ٨٧١).

(٣) ورد هذا البيت ضمن رسالة كتب بها الخليفة عثمان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو محاصر في داره. (مجمع الأمثال ١: ١٦٦ والكامل ١: ١١).

(٤) لم أهتد لقائلها.

(٥) لم أهتد لقائله.

وسؤالي غير سؤالك، وحالي غير حالك، أنت تَشْكين من عدم الجيش، وأنا أشتكي من ضيق العيش، وتذكرين اختلاف العمّال، وأنا أذكر قلة المال، وتسألين الراحة من الضير، وأنا أسأل المير من الخير.

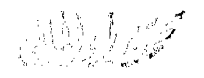
فقالت لها مكة: أليس الجنسية علة الضم، وأن الصداقة بين الإخوان نسب، وقد اتفقنا في المسبب، وإن اختلفنا في السبب، فبينما هما يتجاذبان الحديث، ويذكران ما دار بينهما في القديم والحديث، إذا بزوالٍ لائح، وسوادٍ سائح، قد سدّ الأفق، وملأ الفجاج والطرق، فقالتا: ما الخبر.؟ ثم حققتا النظر، وإذا بفقهاء المدرسة المعمورة، وأرباب الأوقاف المبرورة، قد أقبلوا زمرة إثر زمرة، كأنهم قافلون من حج أو عمرة، فجلسوا في مراتبهم، وأخذوا جميع رواتبهم، وراح كلٌّ منهم بقسطه من ذلك وحقه، ووصل إليه ما قُسم له وقُدِّر من وافر رزقه، فالتفتت المدينة إلى أختها وقالت: أترانا خلقنا بعد قسمة الأرزاق.؟ أم ضاق عنا ما وسع الآفاق.؟ فما بالُنا لم يحصل لنا من هذه الغنيمة قسم.؟ وإن لم يكن لنا معهم في ذلك فعل فلا أقل من الاسم، ثم قالت: إن مثلنا في السكوت لا يعذَر، والشيء بالشيء يُذكر، والكلام في وقته عند ذوي المعروف غير منكر، وقد تبدلنا بالبعد عن المقام الأشرف ولله الحمد قرباً، فتعالي فلنُقدِّم بين يدي نجوانا صدقة، وإذا حضر القسمة أولو القربى[1]. ثم إنها أقبلت على الدعاء للباب الشريف، فأطالت، وتوجهت إلى مقامه العالي المنيف، وقالت: ليعلم مولانا السلطان أدام الله له التمكين والإمكان، وشيّد

(١) سورة النساء، الآية ٨ وتمامها: ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ﴾.

بهمته العالية من الدين الأركان، وجعل حكمه وأمره العالي نافذين بكل مكان، إن المدارس بتلك البقاع خلت من الدرس والدارس وصارت كالطلل الدارس، وأعلام العلم بها خفي منه الرسم، واعتل الجسم، ولم يبق بها منه إلا الاسم، وقد كانت تلك الأماكن المطهرة، منشأ الدين ومظهره، ومشـرع الشرع ومنبعـه، ومبزغ بـدر العلم ومطلعه، ومبدأ العلم ومعدِنه، ومحل التنزيل وموطنه. وسبب قلة العلم بتلك الأماكن، وانتقاله من تلك المساكن، حتى لم يبق منه بها ساكن، اشتغالُ طلبتها بطلب القُوت، وضيقُ أحوالهم في غـالب الوُقوت، وها نحن قد حضرنا لذي المقام الذي لا يخيـب قاصدُه، والباب الذي لا يشقى وافدُه، والمورد العذب الذي لا يظمأ وارده، فأجابت صدقاته العميمة، وشيمه الكريمة، وعواطفه الرحيمة، وقالت لكل واحدة منهما: لك مُناك، والقيام - إن شاء الله تعالى - بالأمر الذي عناك وعنّاك، فليفرَخْ رُوعُك، وليسكن رَوْعُك، وبرز المرسوم الشريف بإجابة سـؤلهما والنظر في أحوالهما، فقبلتا الأرض بين يديه، واشتغلتـا بالدعـاء له والثناء عليه، وابتهلتا إلى الله تعالى في دوام هذه الدولة القاهرة، وأن يجعلها على مرّ الأيام الظافرة، ثم خـرج لهما التشريف والإنعام، والتوقيع الشريف بما سألتا على الدوام كل عام، وزال ما كان بينهما من الخصام والكلام.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: هذا آخر ما أردناه، في تمام الأمر الذي قصدناه وأوردناه، ونسـأل الله أن يوفقنـا للسداد في القـول والعمل، ويعيذنا من الضلال والزيغ والزلل، ويعصمنا في الحركات والسكنـات من الخطر والخـطأ والخـطل، آمـين، والحمـد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





المراجع

١ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ـ لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ـ تحقيق رشدي ملحس ـ ط ٣ ـ مطابع دار الثقافة ـ مكة المكرمة ١٩٧٨ م.

٢ ـ الأعلام ـ لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط ٥ ١٩٨٠ م.

٣ ـ بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة ـ لجلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ ط ١ ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٥ م.

٤ ـ تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨ م.

٥ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد بك المحامي ـ تحقيق الدكتور إحسان حقي ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ط ١ سنة ١٩٨١ م.

٦ ـ تاريخ مكة ـ أحمد السباعي ـ مطبوعات نادي مكة الثقافي ـ ط ٦ مكة ١٩٨٤ م.

٧ ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ـ شمس الدين السخاوي ـ منشورات أسعد طرابزوني ١٩٧٩ م.

٨ ـ تحفة المحبين والأصحاب، في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ـ عبد الرحمن بن عبد الكريم الأنصاري ـ تحقيق محمد العروسي المطوي ـ المكتبة العتيقة بتونس ـ ط ١ سنة ١٩٧٠ م.

٩ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ـ دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.

١٠ ـ الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة ـ تحقيق عبد الله محمد الدرويش ـ اليمامة للطباعة ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٨٥ م.

١١ ـ حماسة البحتري ـ القاهرة.
١٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ لابن حجر العسقلاني.
١٣ ـ سنن ابن ماجه.
١٤ ـ مسلك الدرر.
١٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ ابن العماد الحنبلي ـ دار المسيرة ط ٢ بيروت ١٩٧٩ م.
١٦ ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ أبو العباس ثعلب ـ الدار القومية ـ القاهرة ١٩٦٤ م.
١٧ ـ شفاء الغرام ـ للفاسي.
١٨ ـ شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ـ للألوسي ـ تحقيق الدكتور محمد العيد الخطراوي.
١٩ ـ الشوارد ـ عبد الله بن خميس ـ الرياض.
٢٠ ـ صبح الأعشى ـ للقلقشندي.
٢١ ـ صحيح البخاري وشرحه فتح الباري.
٢٢ ـ صحيح مسلم.
٢٣ ـ الضوء اللامع في القرن التاسع ـ شمس الدين السخاوي.
٢٤ ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ للسبكي.
٢٥ ـ عيون الأخبار ـ لابن قتيبة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م.
٢٦ ـ القاموس المحيط للفيروزأبادي.
٢٧ ـ الكامل لأبي العباس المبرد.
٢٨ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس ـ إسماعيل بن محمد العجلوني ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٢٩ ـ لسان العرب ـ لابن منظور.
٣٠ ـ مجمع الأمثال ـ لأبي الفضل أحمد الميداني ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م.
٣١ ـ مسند الإمام أحمد.
٣٢ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ دار صادر ـ لبنان.
٣٣ ـ المعجم الوسيط.
٣٤ ـ المغانم المطابة في معالم طابة ـ للفيروزأبادي ـ تحقيق حمد الجاسر ـ

منشورات دار اليمامة ـ الرياض ـ ط ١ سنة ١٩٦٩ م.
٣٥ ـ المقامة ـ للدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م.
٣٦ ـ مقامات بديع الزمان ـ بيروت.
٣٧ ـ الموسوعة الثقافية ـ دار المعرفة ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧٢ م.
٣٨ ـ النثر الفني في القرن الرابع ـ للدكتور زكي مبارك ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥ م.
٣٩ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير ـ تحقيق الزاوي والطناحي ـ المكتبة الإسلامية ـ القاهرة.
٤٠ ـ وفاء الوفاء ـ للسمهودي.

صدر للمحقــق

١ ـ شعراء من أرض عبقر ـ جزآن ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

٢ ـ الرائد في علم الفرائض ـ الطبعة الرابعة ـ مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة.

٣ ـ شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج ـ الطبعة الثانية ـ مؤسسة علوم القرآن ـ (دمشق ـ بيروت).

٤ ـ عارف حكمة: حياته ومآثره ـ وهو شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ـ لأبي الثناء الألوسي (تحقيق) الطبعة الأولى ـ مكتبة دار التراث بالمدينة.

٥ ـ المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية) الطبعة الثانية.

٦ ـ المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الأدبية) ـ الطبعة الأولى.

٧ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة الأدبية الاجتماعية والسياسية والثقافية) الطبعة الأولى.

٨ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة الأدبية) الطبعة الأولى.

٩ ـ الفصول في سيرة الرسول ـ للحافظ ابن كثير ـ الطبعة الرابعة ـ تقديم وتحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو ـ دار التراث بالمدينة ـ دار ابن كثير بدمشق.

١٠ ـ المقاصد السنية في الأحاديث الإلٓهية ـ للحافظ علي بن بلبان

المقدسي ـ الطبعة الأولى ـ تقديم وتحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو.

١١ ـ أمجاد الرياض (ملحمة شعرية) الطبعة الأولى ـ دمشق.

١٢ ـ غناء الجرح (ديوان شعر) الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

١٣ ـ همسات في أذن الليل (ديوان شعر) ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

١٤ ـ ديوان محمد أمين الزللي ـ تقديم وتحقيق ـ الطبعة الأولى ـ دار التراث بالمدينة.

١٥ ـ ديوان عمر بري ـ تقديم وتحقيق ـ الطبعة الأولى ـ دار التراث بالمدينة.